دور العقائد

فى بناء الأمم

أسامة عبد الرحمن

مقدمة

أكثر ما يهمّ الإنسان في الحياة هو أن يعرف حقيقة مبدئه ومعاده ، والغاية من وجوده ، ومن أين جاء ، وإلى أين ينتهي ، ولماذا وجد؟ هذه الأسئلة التي يطرحها الإنسان على نفسه على الدوام ، تحتاج إلى إجابات شافية ، لكي يتخذ الإنسان على ضوئها موقفاً من الحياة ، يحدد سلوكه ، ويقيم لمجتمعه نظاماً صالحاً يرضاه ولقد فشلت العقائد الوضعية في الاجابة على استفهامات الإنسان المتعلقة بمبدئه ومعاده ، ومبرِّر وجوده ؛ مرَّة من خلال الادعاء بأنَّ الانسان وجد صدفة! ومرَّة أُخرى من خلال الزعم بأنّه وجد نتيجة لتطور المادة وما إلى ذلك من تفسيرات واهية لا تُسمن ولا تغني من جوع ليس هذا فحسب ، بل فشلت أيضاً في رسم معالم نظام اجتماعي يصلح الانسان ويحقق سعادته بينما أجابت العقائد الدينية المحرَّفة إجابات باهتة مشوهة ، عندما أقرّت من حيث المبدأ بوجود الخالق لكن شبّهته بخلقه

، كما فشلت في تحديد النظام الأصلح للبشرية ، أجابت العقيدة الإسلامية عن كلِّ ذلك بمنتهى الصدق والعمق ، عندما أعلنت أنّ للإنسان خالقاً حكيماً قادراً لا يُنال بالحواس ولا يقاس بالناس ، وأنّ الإنسان وجد لغاية سامية وهي عبادة اللهّ تعالى والوصول من خلالها إلى أرفع درجات التكامل والخلود كما تولّد هذه العقيدة أيضاً عواطف وأحاسيس خيِّرة ، يتبنى الإسلام بثها وتنميتها من أجل بناء إنسان كامل في أبعاده الفكرية والاجتماعية والسلوكية ، وتكوين الشخصية العقائدية التي تتمتع بعقلية هادفة وسلوك قويم ، واتجاه رسالي ، على عكس الشخصية اللامنتمية ، التي تنصبّ اهتماماتها جميعا على الذات ومصالحها ورغباتها ، فتعاني من الفراغ العقلي والتأزم النفسي وفقدان الهدف في الحياة وينبغي الإشارة هنا إلى أنَّ العقيدة الإسلامية ليست كعقيدة الفلاسفة باعتبارها نظرية فكرية تقبع في زوايا الدماغ بل هي قوة تتحرك في القلب وتنعكس ايجابيا على النَّفس والجوارح ، فيندفع معتنقها إلى ميادين الجهاد والعمل ، وعليه فقد كانت قوة فاعلة ومحرِّكة ، غيّرت مجرى التاريخ ، وبدّلت معالم الحضارة، وأحدثت في حياة الإنسان الاجتماعية والفكرية انقلابات رائعة،

وحققت انتصارات عسكرية مشهودة ،لذلك وجدنا القلة المستضعفة المنعزلة في مكة ، استطاعت بعقيدتها أن تصمد ثلاثة عشر عاماً في مواجهة طغيان كالطوفان وهذه العقيدة هي التي جنّدت للرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً عِدّته عشرة آلاف ، وهو الذي خرج من مكة مستخفياً يطارده كفارها ، ولم يستطع الذين حاربوه طوال هذه المدة أن يصمدوا أمام قوة الإيمان الزاحفة ، فاستسلموا له ، وأتوا إليه مذعنين ، أو دفعوا إليه الجزية صاغرين كان المسلمون يملكون أقوى عُدد النصر وهي العقيدة التي تصنع المعجزات ، التي جعلت من حمزة سيد الشهداء يقود أوّل سرية في الإسلام في ثلاثين راكباً مسلماً ، لمواجهة ثلاثمائة راكب من قريش على ساحل البحر الأحمر ،

وكانت جادَّة في المواجهة والاشتباك مع عدو تبلغ قوته عشرة أضعاف قوّتها ولم يحدث في تاريخ معارك الإسلام ، التي كان يحرز فيها انتصارات باهرة ومتوالية ، أن كانت قوة المسلمين المادية متكافئة مع قوة العدو ،

بل كانت قوة المسلمين من حيث العدد والعُدّة تصل أحياناً إلى خُمس قوة العدو ، ولم يتحقق النصر إلاّ باعتمادهم على المدد المعنوي الهائل الذي تمنحه العقيدة للمقاتل المسلم مع عدم إغفال دور المدد الغيبي المتواصل ، وبعض العوامل والشروط المادية الأُخرى وهكذا نجد أنّ العقيدة هي القوة الأساسية في كلِّ معارك الإسلام ، والعامل الأساس في تحقيق النصر في مختلف المجالات وبغية النهوض الحضاري بالفرد المسلم ، لا بدَّ من تذكيره بالمعطيات الحضارية التي منحتها العقيدة الإسلامية لمن سبقه من المسلمين ، صحيح أنَّ المسلم لم يتخلَّ كليا عن عقيدته ، ولكن عقيدته قد تجرَّدت في قلبه من فاعليتها ، وفقدت في سلوكه إشعاعها الاجتماعي ، بفعل عوامل الغزو الفكري التي تعرّض ويتعرض لها باستمرار بفعل عوامل الانحطاط والتخلف التي عصفت بمجتمعه كنتيجة مباشرة لابتعاده عن ما في مجموعه يمثل ما يسمى العقيدة.

أسامة عبد الرحمن

الباب الأول

مدخل عام

☆☆☆

تعريف الاعتقاد

الاعتقاد هو الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده والجمع: عقائد وتعنى ما عقد الإنسانُ عليه قلبه جازماً به؛ فهو عقيدة، سواءً كان حقاً، أو باطلاً هي مجموعة الأفكار والمبادئ التي يؤمن الفرد بصحتها ويكون تبني العقيدة عن طريق الإدراك الحسي، الاستنتاج، الاتصال مع الأفراد ويتداخل مصطلح العقيدة مع مفاهيم أخرى مثل الأيديولوجيا والعقائد الدينية وهناك تفسير آخر للعقيده، يرتبط بالجانب العسكري منها، وهي تلك المفاهيم، والأفكار التي عقد الإنسان عليها قلبه، جازماً بها، ومتفق علي أهميتها وصحتها لفترة زمنية معينة، وتتطلب الحكمة في التطبيق، لذا لا يمكننا القول إنها غير قابلة للشك، بل تخضع للتدقيق، وبصورة مستمره، لذا فهي خاضعة للتطوير، والتحديث، حيث أنها إطار عام من المفاهيم، وليست خطاً قاطعاً كما يتصور الكثيرون، وإذا لم تخضع للتحديث، فإنها بذلك تصبح غير ذات فائده وأهمية،وتكون غير قادرة على مجارات متغيرات الزمن منذ ولادتها وإذا لم تخضع للتطوير فإنها تصبح ما قد نسميه بالمذهب

وينتفى عنها لقب العقيدة أما الإسلام فهو دين يختلف عن ما نقصده بالعقيدة كذلك فالاعتقاد اصطلاحاً في شريعة الإسلام عند أهل السنة والجماعة هو : كل ما دنت به لله فقد اعتقدته، ولا ينحصر الاعتقاد في الأمور المجزوم بها فقط، بل يكون في أغلب الظن، وحصر أمور الاعتقاد في اليقينيات فقط هو منزع المتكلمين أي أهل الكلام لأن الصلاة التي هي عمود الدين يجوز أن تؤدى والمسلم قد طرأ عليه شك في طهارته كما في صحيح مسلم فلا ينصرف حتى يجد ريحاً أو يسمع صوتاً فتكملته لصلاته صار من غلبة الظن ولم يعد من اليقين لأنه شك في طهارته.

ويعد كتاب العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء للمفكر الكبير أ.د محمد عثمان الخشت دراسة فريدة متعمقة مقارنة للأديان بحثاً عن فلسفة جديدة للدين تجيب على أسئلة الحائرين والمتشككين في موقف لا يخرج عن عقيدة السلف؛ حيث يقوم المؤلف بتقديم تحليل نقدي جرئ لقضايا الإيمان الشائكة التي يتناولها فلاسفة الدين، مثل: الألوهية، الوحي والنبوة، المعجزات، ماهية العبادات ووظيفتها، مشكلة الشر، الحياة الآخرة بالمقارنة مع الفلاسفة الذين قدموا فلسفة خاصة للدين مثل: ديكارت،

وسبينوزا، وليبنتز، وهيوم، وكنت، وهيجل، وجيمس، ووايتهد، وبرايتمان، فضلاً عن المقارنة الشاملة بين عقائد الأديان وتصورات الفلاسفة من كل عصور الفلسفة لذا يعد هذا الكتاب المثير أحد العوامل الرئيسية للخروج من دائرة التفكير الأسطوري في طبيعة العلاقة مع الله .

مفهوم العقيدة وتسمياتها:

نُريد أن نَعرف الجواب عن سؤال هام، وهو ما هي العقيدة؟ وقبل أن نعرف العقيدة يَنبغي علينا أن نعلم أن كلمة العقيدة لها تعريفان: تعريف في اللغة، وتعريف في الاصطِلاح لكن لماذا يَذكر العلماء المعنى اللغوي للكلمة مع المعنى الاصطلاحي؟ والجواب: لنَعرف الارتباط بين المعنى الشرعي والمعنى اللغوي؛ حتى يتبيَّن لنا أن المصطلحات الشرعية لم تكن خارجة عن نطاق المعاني اللغوية خروجاً كاملاً؛ بل هناك ارتباط؛ ولهذا تجد العلماء كلما أرادوا أن يَعرفوا شيئاً قالوا: هو في اللغة كذا، وفي الاصطلاح كذا.

العقيدة لغةً:

أما العقيدة في اللغة، فهي على وزن فعيلة بمعنى مفعولة، كقتيلة بمعنى: مقتولة، فهنا عقيدة بمعنى شيء معتقَد؛ وأصل كلمة العقيدة مِن العَقْدِ؛ وهو الرَّبطُ، والإبرامُ، وأصل العَقْد نقيض الحل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في البيوعات وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم ويقال: عَقَده يعقِده عَقْدًا، ومنه عُقْدَة اليمين والنكاح؛ قال تعالى :(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ)، وكل ما عقد الإنسانُ عليه قلبه جازمًا به سواءٌ أكان حقًّا أم باطلاً فهو عقيدة والمعتقد: ما يَعتقِده الإنسان والعقيدة: الحكم الذي لا يُقبَل الشك فيه لدى معتقدِه فهي أمور وقضايا لا تقبَل الجدال ولا المناقشة.

والعقيدة اصطلاحاً؛ أي: بين أهل هذا العلم علماء العقيدة لها معنيان: معنى عام يشمَل كل عقيدة، ومعنى خاص يَشمل العقيدة الإسلامية فقط، فالعقيدة بالمعنى العام هي الإيمان واليقين الجازم الذي لا يتطرَّق إليه شكٌّ لدى معتقده، سواء أكان هذا الاعتقاد حقًّا أم باطلاً

والعقيدة بالمعنى الخاص تَخصُّ العقيدة الإسلامية فقط والعقيدة الإسلامية هي الإيمان الجازم بربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخِر، والقدر خيره وشرِّه، وسائر ما ثَبَتَ من أمور الغيب، وأصول الدِّين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم.

والأمور العملية التي مِن قطعيات الدِّين؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، والجهاد، والحب في الله والبغض في الله، ونحو ذلك مما يَندرج في الواجبات، وفي العلاقات بين المسلمين؛ كحبِّ الصحابة رضي الله عنهم وحبِّ السلف الصالح، وحبِّ العلماء، وحبِّ الصالِحين، ونحو ذلك مما يُندرج في أصول الاعتقاد وثوابته ويُمكن أن نقول :إن العقيدة الإسلامية هي كل خبر جاء عن الله أو رسوله يتضمَّن خبرًا غيبيًّا لا يتعلَّق به حكم شرعي عمَلي، فسائر ما ثبَت مِن أمور الغيب هو مِن العقيدة، والأخبار التي جاءت في كتاب الله وصحَّت عن النبي صلى الله عليه وسلم

هي مِن العقيدة، والثوابت العلمية أو العملية داخلة في العقيدة؛ كالتزام شرع الله عز وجل في الجملة، والتزام أصول الفضائل والأخلاق الحميدة ونفي ما يُضادُّ ذلك ويُمكن أن نقول :إن العقيدة الإسلامية عبارة عن مجموعة الأحكام الشرعية التي يجب على المسلم أن يؤمن بها إيمانًا جازمًا، وتكون عنده يقينًا لا يَشوبه شكٌّ، ولا يُخالِطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شكٌّ، كانت ظنًّا لا عقيدة وقد قال تعالى :- (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)، فاشترط في صدْق إيمانهم بالله ورسوله كونَهم لم يَرتابوا، أي: لم يشكُّوا، فأما المرتاب، فهو مِن المنافقين، والعياذ بالله وقال النبي صلى الله عليه وسلم-: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يَلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنة، بالنسبة للمؤمن يَعتقِد العديد مِن الاعتقادات، فذِهنُه مثلاً يَجزم بأن الله موجود، وأن الله له صفات الكمال، وبأن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله، وبأن القرآن كلام الله حق، وأن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم صدق.

ويُمكِن تعريف العقيدة الإسلامية بتعريف مختصَر، فنقول: العقيدة هي التصديق الجازم بالعقائد الواردة في القرآن والسنَّة والعمل بمقتضاها، أو المسائل التي صحَّ بها الخبر عن الله ورسوله، والتي يَجب أن يَنعقِد عليها قلب المسلم.

<u>مسائل العقيدة لا تقبل الجدال ولا المناقشة:</u>

والعقيدة الإسلامية هي الأسس التي يقوم عليها الدِّين الإسلامي، ومسائل العقيدة لا تقبل الجدال ولا المناقشة؛ لأنها ثوابت ومسلَّمات ويُطلَق على العقيدة ثوابت دِين الإسلام، ويُطلَق عليها مُسلَّمات، ويُطلَق عليها قطعيات، ويُطلَق عليها أصولاً وهى عند إطلاقها عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة لأنَّها هي الإسلام الذي ارتضاه الله دينًا لعباده، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضَّلة مِن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدِّين لكن ما وجه الارتباط بين المعنى اللُّغوي والمعنى الشرعي لكلمة العقيدة؟ والجواب :وجه الارتباط بين المعنى اللغويِّ، والمعنى الشرعي لكلمة العقيدة:

هو أن كلمة عقيدة مِن العقد، والعقد هو ربط الشيء؛ أي: الجمع بين أطراف الشيء، فكأن المُعتقِد قد جمع أطرافَ قلبه، وعقَد ضميره على مُعتقَدِه، فأحكم وثاقه بالأدلة القاطِعة لدَيه، والبراهين التي قامت على معتقدِه، وسُمِّيَت العقيدة عقيدةً؛ لأن القلب يَعْقِدُ عليها العزم، فأصل العقيدة مادة العقد، وهي تدور حول الإحكام والشَّدِّ، وعَقَدتُ الحبل: إذا رَبطْتَهُ بشدة.

<u>أسماء علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة:</u>

وللعقيدة الإسلامية أسماء مُتعدِّدة عند أهل السُّنَّة والجماعة، منها: العقيدة، والاعتقاد، والعقائد، والتوحيد، والسنَّة، والشريعة، والإيمان، وأصول الدِّين، وما مِن اسمٍ مِن هذه الأسماء إلا وتجد بعض الأئمة قد صنَّف كتاباً وسماه بهذا الاسم، فكم مِن كتاب لأئمة السلف اسمه الإيمان أو التوحيد أو أصول الدِّين أو نحو ذلك.

وإن قيل: لا يجوز شرعاً استعمال مصطلح عقيدة؛ لأنه لم يرد في كتاب الله عز وجل ولا في سنَّة رسوله فجوابه: أن لا مشاحَّة في الاصطلاح وليست العِبرة بالتقسيم؛ إنما العِبرة بالمعنى، والمسميات والتقسيمات اجتهادية، فإذا كان هذا الاصطلاح استُخدِمَ في معنى صحيح، ولم يتضمَّن معنى فاسدًا، ولم يُخالف الشرع، ولم يختصَّ به أهل البدع، فلا بأس به، وإذا كان هذا الاصطلاح استُخدِمَ في معنى غير صحيح، أو تضمَّن معنًى فاسداً، أو اختص به أهل البدع، أو خالف الشرع، فلا يجوز

وقد استعمل العلماء مصطلح العقيدة دون نكير، كما أنهم لم يُنكروا مصطلح الفاعل والمفعول به، والمبتدأ والخبر، والحال والمفعول المطلَق، ونحو ذلك في النحو.

أما المصطلحات التي تكون معانيها باطلة؛ كاصطلاحات الأشاعرة: العرَض، والجِسم، والجوهر الفرد، ونحو ذلك، فهي لا تَجوز؛ ليس لكون الأشاعرة استخدموا مصطلحات جديدة، بل لأن هذه المصطلحات تتضمَّن معانيَ باطِلة فما يعتقده الإنسان ويوقن به، يُمكن تسميتُه عقيدةً،

ولا يتضمَّن هذا معنى فاسدًا، والغرض مِن الاسم تمييز المُسمى عن غيره ومعرفتُه به والعقيدة مصطلَح ذكَره العلماء المتأخِّرون لجملة المسائل التي تتعلَّق بعقيدة الإنسان، وهذه المسائل تُسمى في القرآن والسنَّة الإيمان، فاللفظ الحقيقيُّ الذي أكثرت النصوص مِن إيراده هو لفظ الإيمان، لذلك سمى بعض السلف بعض ما كتبوه بالإيمان اسم العقيدة، وإن كان الوارد في القرآن والسنَّة هو الإيمان؛ قال تعالى :(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وقال تعالى :(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عن الإيمان أن تؤمِن بالله وملائكته وكتُبه ورسله واليوم الآخِر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه .

ومِن أسماء العقيدة الصحيحة السنَّة، وتُطلَق السنَّة بمعنى شرعيٍّ عام يشمل ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون مِن الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنَّة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يُطلِقون السنة إلا على ما يَشمل ذلك كله وليس المقصود بالسنَّة هنا الاصطلاح الفقهي، أو الاصطلاح الأصولي المتعلّق بالأحكام التكليفة، وهي أن السنَّة ما يُثاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها، هذا اصطلاح خاص عند الفقهاء، لكن السنَّة كمُصطلح شرعيٍّ ورَد في النصوص النبوية يُراد به العقيدة الصحيحة التي خلافها البدع وقد أطلق العلماء على العقيدة الصحيحة اسم السنَّة؛ لتمييزها عن عقائد ومقولات الفِرَق الضالة؛ لأن العقيدة الصحيحة مُستمَدة مِن سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي مُبيِّنة للقرآن.

وقد ساد إطلاق مصطلح السنَّة على العقيدة في عصر الإمام أحمد بن حنبل، حين ظهرت الفِرَق وراجَت عقائد المعتزلة والرافضة والصوفيَّة وأهل الكلام، فأخذ أئمة الإسلام حينذاك يُطلِقون على أصول الدِّين ومسائل العقيدة: السنَّة؛ تمييزًا لها عن مَقولات الفِرَق وقد اعتبر العلماء معنى السنَّة :اتباع العقيدة الصحيحة، وأطلقوا على عقيدة السلف الصالح اسم: السنة؛ بسبب اتباعهم لطريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في ذلك.

أسماء علم العقيدة عند أهل البدع:

أطلق أهل البدع والأهواء على عِلم العقيدة بعض الإطلاقات البدعيَّة التي تتضمَّن معاني فاسدةً؛ كتسمية العقيدة بـعِلم الكلام، وعِلمُ الكلام هو ما أحدثه المُتكلِّمون في أصول الدِّين مِن إثبات العقائد بالطرُق التي ابتكَروها، وأعرَضوا بها عما جاء الكتابُ والسنَّة به وقد تنوَّعت عبارات السلف في التحذير من الكلام وأهله؛ لما يُفضي إليه مِن الشُّبهات والشُّكوك؛حتى قال الإمام أحمد :لا يُفلِح صاحب كلام أبدًا، وقال الشافعي: حُكمي في أهل الكلام: أن يُضربَوا بالجريد والنِّعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء مَن ترَك الكتاب والسنَّة، وأقبَل على عِلم الكلام.

وأُطلِق على العقيدة :الفلسفة، وهذا باطل؛ لأن الفلسفة بُنيَت على أقوال الناس، والعقيدة مبنيَّة على النقل مِن كتاب أو سنة، والعقيدة الإسلامية كلها حقٌّ، أما الفلسفة، ففيها الحق والباطل، وما يُسمى بالفلسفة الإسلامية هو عِلم الكلام في صورته المتأخِّرة التي تأثَّرت بالفلسفة الإغريقيَّة

وأُطلِق على العقيدة :الإلهيات، وهي ما يتعلَّق بذات الله تعالى وصفاته، وهذه التسمية فيها باطل؛ لأن الإلهيات هي الجانب الفلسفي الغَيبي المتعلِّق بالإله عند الغربيِّين، وهذا اللفظ حكمه حكمُ الفلسفة وعلم الكلام؛ لأنهم يَقصدون بالإلهيات كل كلام في غير عالم الشهادة يتعلَّق بالله سبحانه وتعالى سواء في وجوده، أو في وحدانيَّته، أو في أسمائه وصفاته وأولئك لا يَعرفون أيَّ معنى مِن معاني الإثبات الشرعي فيما يتعلَّق بالأسماء والصفات؛ فلذلك يتكلمون فيها بالغيب وبالفلسفة، ويُسمُّون هذا كله بالإلهيات، فالمقصود بالإلهيات عندهم فلسفات الفلاسفة، وكلام المُتكلِّمين والملاحِدة فيما يتعلق بالله عز وجل وإلا فشيخ الإسلام ابن تيمية له كتاب الإلهيات.

وأطلق على العقيدة :ما وراء الطبيعة، ما وراء الغيب؛ يَقصدون الغيبيَّات، وهذا باطل؛ لأن ليس كل الغيبيات وراء الطبيعة، فكثير مِن الغيبيات في الإنسان نفسِه، لكن هم عبَّروا بما وراء الطبيعة عن الإلهيات، فسمَّوا الإلهيات: ما وراء الطبيعة وهي قريبة مِن معنى الإلهيات، ويُطلِق الناس على ما يؤمنون به ويَعتنقونه مِن مبادئ وأفكار :عقائد، وإن كانت باطلة أو لا تَستنِد إلى دليل عقلي ولا نَقلي.

وأطلق على العقيدة :الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي، وهذا باطل؛ لأن الإسلام ليس مجموعة أفكار، لكنه وحيٌ منزَّل مِن عند الله، والفِكر والتصوُّر قابل للطرح والمناقشة، قد يَصحُّ وقد لا يَصح، والعقيدة الإسلامية توقيفيَّة لا مجال للرأي فيها، والفِكر والتصوُّر يَقبل الصواب والخطأ، والعقيدة الإسلامية شأنها شأن باقي الدِّين الإسلامي: العِصمة مِن الخطأ.

عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء فشكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن .

دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية

ان العقيدة الإسلامية في تحديدها لحقيقة الوجود والإنسان والكون هي الفكرة التي صنعت الحضارة الإسلامية، إذ كل حضارة ثمرة فكرة تحدد هذه الحقيقة وستبقى على مدى الدهر هي التي تحرك الأمة إلى هذه الحضارة: استئنافاً، وتعديلاً، وترشيداً، كما حركتها لصناعتها ابتداءاً لكن هذه العقيدة يتوقف عملها في الدفع الحضاري على كيفية تحمل المسلمين لها فإن كان تحملها يجري على حال صفاتها وصحتها كما جاءت عليه في حقيقتها من جهة، وكان يجري من جهة أخرى على عمق من النفوس بحيث تأخذ بمجامعها، وتحشد قواها، أفضى ذلك إلى الدفع الحضاري، وإن كان ذلك التحمل يجري على حال تكون فيه صورة العقيدة على انحراف وتشويش أو تجزئة واختصار، وكان من جهة أخرى يجري على حال لا تتجاوز فيه العقيدة مجرد أفكار وخواطر ومعلومات تقع في الأذهان، ولا تنفذ لتأخذ بمجامع القلوب، فإنها حينئذ يتعطل دفعها للنفوس،

فلا يكون لها أثر يذكر في الفعل الحضاري، ويكون إذن التراجع والانحسار في التحضر، ويكون العجز عن النهوض لاستئنافه من جديد وقد كان الخلل الذي أصاب الأمة الإسلامية في تحملها لعقيدتها عاملاً حاسماً في انحسارها الحضاري سواء ما آل إليه الأمر من انحراف في التصور العقدي، أو من سطحية في التحمل الإيماني تراخي بها الدفع الإرادي للعمل الحضاري وهذا الخلل بمظهريه هو نفسه الذي يعوق الأمة اليوم عن الانطلاق من جديد للنهوض الحضاري عاملاً أساسياً من عوامل الإعاقة، فيكون إذن إصلاح الخلل عاملاً أساسياً من عوامل النهضة، بحيث لا يمكن أن يحدث في حياة الأمة الإسلامية انتعاش معتبر، فتنمو هذه الحياة في وجوهها المختلفة وتستأنف شهود التحضر بإصلاح عقدي يرشد تحمل الأمة لعقيدتها لتقع في النفوس من جديد موقع الدفع إلى العمل الصالح المعمر في الأرض، المنمي للحياة وتحمّل العقيدة الإسلامية يكون على درجات متعددة، أولها الفهم،وذلك بتصور هذه العقيدة على حقيقتها

كما ورد بها الوحي وثانيها التصديق بحقيقتها، سواء في نسبتها إلى مصدرها، أو في قيمتها الذاتية مطابقة للواقع، وتأدية إلى الخير والصلاح وثالثها صيرورتها مرجعاً موجهاً للفكر في كل ما يتجه إليه البحث، وما ينتهي إليه من النتائج ورابعها صيرورتها دافعة للإرادة كي تنطلق في سبيل الفعل والإنجاز وفي كل درجة من هذه الدرجات في تحمل الأمة الإسلامية اليوم يوجد خلل يستوجب الإصلاح، ليتم من إصلاح الاعتقاد تفصيل صلاحه ورشده جملة، ولتكتمل بذلك العناصر التي تجعل من الوضع العقدي للمسلمين عامل نهضة حضارية كما كان عند إنشاء التحضر الإسلامي في دورته الأولى.

ويتم الإصلاح العقدي في درجاته الأربع ، من خلال ثلاثة عناصر أساسية: أولها: ترشيد الفهم للعقيدة الإسلامية ترشيداً تستقر به هذه العقيدة في النفوس صحيحة صافية جازمة وثانيها: التأطير العقدي الشامل، بحيث تكون العقيدة هي المرجع الأساسي الذي يصدر عنه فكر المسلم وعمله جميعاً والثالث: هو التفعيل الإرادي للاعتقاد .

الباب الثاني

أهمية العقيدة وأثرها

أهمية العقيدة وأثرها فى حياة الإنسان والمجتمعات

ان العناية بالإنسان ظهرت منذ بدء الخليقة فخلق الله آدم عليه السلام بيديه ونفخ فيه من روحه وتحدى به الملائكة وعلمه الاسماء كلها وأمرهم بالسجود له والقرآن كتاب غايته الانسان وهو كلمة الله الحق التى تنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة للرسالات وخاتماً للنبوه وقد أقرت حقيقة ان الانسان خلق لثلاث غايات كبرى هى عبادة الله ،تزكية النفس،عمارة الأرض والأصل هو عبادة الله *{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ ليعبدون}* ووجود العقيدة قائم بحد ذاته انما المشكلة فإيمان البشر منها من عدمه والايمان بها درجات وهى اشبه بعلاقه الجنين بأمه الذى يحتاج لحبلها السرى والذى اذا انقطع مات الطفل ولن تموت الام فالانسان يحتاج الله والعقيدة في الاصطلاح العام هي ما انعقد عليه القلب وصدق به وتعذر تحويله عنه، لا فرق في ذلك بين ما كان راجعاً إلى تقليد أو ظن أو وهم أو دليل فالإنحراف فى العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة بل يسرى فى اوضاع الحياة الاجتماعية

لان العقيدة هى المحرك الأول للحياة سواء ظهرت أو كمنت حيث أن أثر اعتقاد فاسد سيظهر لا محالة فى سلوك اجرامى فى حق نفسه أو فى حق الآخرين فنحن عندما نتكلم عن أثر العقيدة فى النفس انما نتكلم عن أثر العقيدة الاسلامية التى لا تحريف فيها ولا تبديل كما نتكلم عن إيمان الناس بها بين ايمان حق ربما أكثره نظرى وايمان فيه خلل أدى لتعطل فاعلية العقيدة فى المجتمعات المسلمة فى المجال العملى التطبيقى.

والعقيدة السليمة تربى الفرد وتمده بالايمان الموكول إلى ضمير الانسان أو النفس اللوامة بتعبير القرآن فكل مؤمن يصبح رقيباً على نفسه خاضع لرقابتها وهو أدرى بما يفرط فيه فقد يفلت من محاسبة المجتمع ولا يفلت عن حساب هذه النفس اللوامة وكل القوانين والشرائع الوضعية عاجزة عن أن تحكم الضمير وما من رقابة خارجية تغنى عن مراقبة النفس التى أرهفها الايمان وحملها أمانة الانسان ولا يمكن أبداً إرضاء الضمير فهو أمر مستحيل ،

وفي اللحظات التي يخيل إليك أن ضميرك رضي عنك لا يكون في الحقيقة قد رضي إنما يكون قد مات وفى إحدى الاحصائيات أكد ثلث الشباب فى الجامعات الكندية انهم على استعداد لإغتصاب زميلاتهم فى الجامعة اذا ضمنوا أن يفلتوا من العقوبة أى أن الضمير هنا لا اعتبار له انما الخوف كله من القانون الوضعى واذا ما وجد فرصة تلافى العقوبه لن يشعر بأى وخز فى ضميره وقد توصلت مارى كورس عالمة النفس بعد دراسة ستة آلاف ومائتين طالب وطالبة فى ٣٢ كلية أمريكية عبر ثلاث سنوات إلى أن ١٥% من الطالبات مررن بتجارب توصف فى اللغه القانونية بالإغتصاب وتبلغ عدد حالات ابلاغ السلطات النصف رغم قسوة قانون العقوبات الأمريكى الذى يعاقب على النوايا ويعاقب على كل جريمه منفرده حتى أن العقوبه قد تصل للحكم بالسجن إلى مئات السنوات .

فبدون الدين وبدون فكرة الجهاد الروحي المتصل للإنسان لا يوجد إيمان حقيقي لدى الإنسان باعتباره قيمة عُلْيا بدون ذلك ينتفي الإيمان فى إمكانية إنسانية الإنسان ، أو بأنه موجود حقيقة ويصبح كائن أو سلعة تستغل وتباع وتشترى وظهر ذلك السعار الجنسى والتوجه الحاد نحو اللذه الذى صاحب ظهور الانسان الفرد الملتف حول ذاته ومصلحته ولذاته الذى يجد خلاصه فى الاستهلاك واللذه فلا يطيق أى حدود أو قيود أو مسئولية لذا فهو غير قادر على إرجاء رغباته فهو يود تحقيقها الآن والايمان بالعقيدة الاسلامية له آثار نفسية واجتماعية وروحيه وعمليه وسياسية بل حتى اقتصادية كما أنها تساعد الفرد على مواجهة التحديات التى تفرضها فلسفة وعصر ما بعد الحداثة ذات الطبيعة التدميرية للفرد قبل المجتمع فيصبح بسببها المجتمع مبنياً على رفض القيادات الدينية المطلقة والمتجاوزة كالدين فتنزع عنه الأمان النفسى لأن الانسان فى طبيعته يميل للرجوع لذات متعالية يستمد منها حقيقة وجوده ويستمد منها المعايير المتعالية للواقع

كى يستطيع أن يتجاوز واقعه وبالنسبة للفرد فان عصر ما بعد الحداثة فى الغرب سيهيمن عليه القلق واللاعقلانية وقد يؤدى بالإنسان إلى الشعور بالازدراء وعدم الاكتراث وقد يقوده القلق والخوف إلى الانكماش والسلبية كما أنها ستضع الانسان أمام تحدى الولوج إلى عالم اللانهاية فإنكار وجود هدف أو غاية من الوجود هو تحدى فى حد ذاته وبسبب فقدان المطلق والمعنى واليقين يصبح الاستهلاك والسعار الجنسى هما البديل وهذا ما يفسر حالات التحرش والاغتصاب المنتشرة فى الغرب والشرق على حد سواء بسبب هيمنة نموذج الحداثة وما بعدها وتراجع دور الاسرة.

ومن الآثار النفسية المترتبة على عدم الأخذ بالعقيدة والايمان بها حيث أن قانون الفعل الشعورى الانسانى عدم استطاعة أى انسان مهما كان فعل شىء تجاه الآخرين ان لم يكن يفعله اتجاه نفسه ولا يقدر على فعله اتجاه نفسه دون أن يفعله تجاه ربه فمثلاً لا يمكن أن تثق فى الناس

قبل أن تثق فى نفسك ولا يمكن أن تثق فى نفسك قبل أن تثق فى ربك والثقة فى الله ليست محلها اللسان انما محلها القلب فالواثق بالله يرضى بقضائه وبما قسمه الله له ولا يجزع أبدا حينها فقط يستطيع أن يثق فى نفسه والآخرين لأنه يستمد الثقة من موجود أعلى بل من أصل الوجود نفسه الله سبحانه وتعالى وبالمثل فى كل فعل شعورى انسانى آخر فغياب الحلقة التى تربط المخلوق بالخالق يؤدى إلى : الخوف والجبن – توقع الأسوأ والتشاؤم الدائم – والتناقض فى الشخصية فاما تجده يقسو على نفسه بشده أو ما يعرف فى علم النفس بالمازوخية أو تجده على عكس ذلك يقسو على الآخرين أو ما يعرف بالسادية – الشعور بالوحده حتى وسط الجموع والاحتياج العاطفى – تعقيد أبسط الامور – الغضب السريع – عدم تقدير الذات ولا الآخرين – الكبر والخيلاء والغرور – التسلط وتمنى فشل الآخرين – الحكم على الناس بظاهر القول – أن يتحول الفرد إلى امعه إما يتغير سلوكه حسب الناس أو عكس الناس

لأنه غير متعلق بمنهج واضح يكون الحلال فيه بّين والحرام فيه بّين – فقدان الشعور بالسعادة مهما كسب من رغد العيش – التخبط والحيرة والضياع (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) – عدم القدرة على التخلص من العادات السيئة – الشعور بعدم الأهمية وبالفشل – التفكير السلبى – الاهتمام بإفراط بمظهره الخارجى لأن داخله فراغ – مقاومة الحقيقة والهرب منها ....الخ وهذا كله مجرد قطرة من بحر وتلك الأعراض منتشره بكثرة وظهرت لها كتب عديدة فيما بات يعرف بمساعدة الذات لمحاولة معالجتها فى الغرب وهى مع الأسف مستندة أيضاً للفلسفة المادية ذاتها التى تسببت فى تلك الأمراض وبالتالى ليست سوى مسكنات وخطورتها أنها تتعامل مع الانسان مهمله أهم جانب فى وجوده وهو الروح التى لا خلاص لها إلا بالعقيده أما أثر العقيدة والايمان فى حياة الفرد:

أ) تزكية النفس: السكينة والطمأنينة والأمان النفسى : {*أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ*} فالانسان يستشعر القلة والضعف مقارنة بما حوله من موجودات وكلما زاد علمه صغر حجمه والقلق هو مرض العصر الذى ضرب بجذوره فى الحياة العصرية الحديثة فظهرت فلسفات القلق والعبث وتفشى بين أبناء الغرب من الماديين أعلى نسب الإنتحار والجنون والهوس وتعاطى المخدرات ·

- العزه والقوة : {*وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ*} فالإنسان يصيبه الضعف والوهن اما لأسباب خارجية كاستبداد وطغيان الحكام والدول المحتلة لأرضه أو لأسباب داخلية نفسية كالهوى والشهوات أو بيولوجية ككبر السن والمرض ولا يوجد تعبير أقوى من تعبير الشهيد سيد قطب الذى قال قبل اعدامه ان اصبع السبابه الذى يشهد بوحدانية الله لا يمكن أن يكتب كلمة لإسترضاء عبداً من عباده أو أحداً من بنى البشر .

- وحدة النفس : {ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رُجلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} والإنسان عبد وحر وهى ثنائية انبثقت من ثنائية الروح والجسد التى انبثقت من ثنائية أعلى هى ثنائية الخالق والمخلوق فإما أن تكون حراً مع الله عبداً لمن سواه أو تكون عبداً لله حراً مع من سواه ولا توجد حرية مطلقة فحتى الانسان الغربى يتوهم أنه حر لذلك قال روسو عن الشعب الانجليزى انه مخدوع فيما يعتقده انه حر ينعم بنظام برلمانى يختار أعضاؤه فالواقع انه لا ينعم بالحرية الا اثناء قيامه بالانتخابات فحسب ثم يرتد بعد ذلك إلى نوع من العبودية [يقصد عبودية الدولة] فإذا ما تعارضت الأوامر والنواهى فى مصادرها تشتت الانسان نفسياً وهو الظاهر اليوم من أحوال المسلمين حيث خضعوا بجزء من حياتهم لتعاليم الدين وجزء آخر لتعاليم الدولة القائمة على نموذج مغاير للثقافة الاسلامية مما أدى بهم إلى مسخ أصابهم .

ب) تزكية الفكر

- سعة النظر: الايمان بعقيدة يجعل الفكر يتجاوز السطح المادى إلى ما هو أبعد وآينشتين قال ان الخيال أهم من المعرفة فاذا ما اقتصرت حركة الفكر على الجولان فيما هو محسوس فقط من الموجودات فإنها حينئذ تسقط معطيات كثيرة من المعطيات المكونة للوجود عامة.

- تحرر الفكر: من التحيز المسبق الذى يقود لنتائج معده سلفا تخالف حتى الأسباب المنطقية المطروحه وأبسط قواعد الاستدلال المنطقى والبحث العلمى اما التحيز للعقيدة فهى تخالف الشهوات أصلاً فالتحيز لها هو تجاوز للتحيز نفسه وتحرر فكر الغرب انما هو تحرر فى نطاق التفكير فى المادة فجعل منها مقدساً فليس صحيحاً أن الحضارة الغربية بلا مقدس انما هى بلا ضمير مقدس فتم سحب القداسة من مجال الدين والاخلاق وكل ما هو مثال متجاوز للمادة إلى المادة نفسها.

- وحدة المعرفة: والوحده تختلف عن الواحدية فهناك فرق بين الثنائية الفضفاضة والثنائية الصلبة فالأولى بها نوع من التكامل اما الثانية فأحدهما يصفى الأخرى فتنتهى الى واحدية اما مادية أو روحية وهذا يعرف بوحدة الوجود فينتج عنه التمييز بين عالم الغيب والشهادة والجسد والروح والواقع والقيمة تميزاً اقصائياً فيغرقون بذلك فى ثنائيات متنافية أفضت لإشكاليات وحقائق تبنى لتتلائم مع الأفكار المسبقة أما وحدة المعرفة فهى تلك التى تنبع من مصدر واحد فخالق العقل هو خالق النقل وخالق الكون والعلم هو خالق الدين فكل محاولة تفسر الظاهرة الانسانية تسقط من حسابها قدر الله ومشيئته وتستبدلها بالحتمية التاريخية أو المادية لا تفسر شيئاً على الاطلاق أما التفسير الاسلامى يفسر أحوال البشر فى ثنائية فى رفعتهم وهبوطهم وقوتهم وضعفهم ويدخل فى حسابه عالم الغيب والشهادة فى وحده متكاملة.

ج) تزكية العمل : اى عمل لا يتعلق بالله فهو مبتور فالانسان الذى يعمل بلا اعتبار لعقيده ولغرض دنيوى فقط ولم يحصل على حافز مادى ينتظره تقل همته ولذلك فى علوم الادارة يعطون أولويه بالغه لمسألة التحفيز الدائم للموظفين ومن أدوار القائد المهمه أن يقوم بتحفيز موظفيه بشكل دائم كى يقوموا بوظائفهم على أكمل وجه وقديما قيل ان المرء بإمكانه ان يعمل ٨ ساعات من أجل المال و١٢ ساعه من اجل مدير ناجح و٢٤ ساعة من اجل فكرة يؤمن بها مما يؤكد أن الإيمان بشىء يتجاوز المادة ويفجر طاقة الانسان داخلياً .

أثر العقيدة في سلوك الفرد والمجتمع

لاريب في أن للعقيدة التي يحملها الإنسان أثرًا في توجيه سلوكه وتصرفاته، وأن أي انحراف في هذه العقيدة، يبدو واضحاً في حياة الإنسان العملية والخلقية، ويؤثر ذلك بشكل ملموس في حياة المجتمع؛ لأننا لا نستطيع الفصل بين المجتمع وأفراده، ونستطيع أن نعزو كل فضيلة قام بها الفرد أو حث عليها المجتمع إلى العقيدة، وكل رذيلة أتاها الفرد وتغافل عنها المجتمع إلى ضعف العقيدة في النفوس لا في ذاتها.

١-سلطان العقيدة على النفوس

كل عقيدة يحملها الفرد وتدين بها الأمة سواء أكانت صحيحة أم باطلة لا يقتصر أثرها على الناحية الفكرية استقامةً وانحرافًا، هدىً وضلالاً، بل لا بد وأن يظهر أثر هذه العقائد في جوانب الحياة المختلفة،

٢- ومن هنا جاءت الضرورة للعقيدة السليمة؛ لأنها الغذاء الروحي والضروري لسير الفرد والمجتمع في مضمار التقدم والحضارة وبمقدار تمسك الأمة وأفرادها بالعقيدة السليمة، بمقدار ما يكتب لهذه الأمة البقاء بشخصيتها المستقلة دون الذوبان في الأمم الأخرى.

وليس هناك عقيدة تحرر الإنسان من الشرك والعبودية لغير الله، كالعقيدة الإسلامية؛ لأنها عقيدة تصدر عن الله أولاً، ولأنها تسيطر على جميع مجالات الحياة وعلى النفس الإنسانية بقوة أكثر من قوة القانون وسلطته، وبتكاليف أقل من تكاليف تنفيذ القانون والقانون وحده ما لم يستند إلى العقيدة فإنه يعتبر فاقدًا للقوة الروحية التي ينشأ عنها احترامه، فهو لن يضبط السلوك الإنساني في كل وقت ومكان، لإمكان التحايل عليه والهرب من العقاب والعقيدة سارية المفعول على الحاكم والمحكوم؛ لأنها مستندة إلى سلطان الله، أما القانون المستند لسلطان الحاكم فلا يسري عليه؛ لأنه هو منفذ هذا القانون ويفسره كما يشاء.

٣- والعقيدة تمتاز عن القانون كذلك بأنها تنبع من الداخل، وتمتزج بضمير الإنسان ولا تفرض عليه من خارجه كالقانون، فهي تحكم التصرفات الظاهرة والباطنة التي تقع خفية عن القانون، ولهذا فهي تملك أن تورث الأخلاق والفضائل، وتملك أن تقول للإنسان: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه} ، ولا يملك ذلك القانون إن لم يكن مستنداً إلى العقيدة والإيمان بالجزاء الأخروي؛ لأن سلطانه وجزاؤه دنيوي جسدي، وسلطان العقيدة روحي وأخروي: روحي؛ لأنه ينفذ إلى روح الإنسان ويحكمه داخلياً، وأخروي؛ لأنه يدفع صاحب العقيدة عند الزلل للتوبة والاستغفار وإن وجب عليه حد يدفعه ليكشف نفسه للحاكم ليقيم عليه الحد ولو كان حد الرجم حتى الموت، وهو مطمئن لهذا الحكم خوفًا من سخط الله وعقوبته في الآخرة، كما فعل ذلك ماعز الأسلمي والغامدية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هنا تبرز قيمة العقيدة كدافع وباعث نفسي داخلي للفرد لسلوك المسلك العملي والخلقي الصحيح؛

٤- لأن صاحب العقيدة الصحيحة لا يخالف بعمله عقيدته، وإذا انفلت المرء من هذه العقيدة يكون قد ارتكس في حمأة الشهوات البهيمية التي لا يضبطها ضابط، ويضعف عقله وقوته باستمرار أمام نزواته وأهوائه؛ لأنه ليس له ركن شديد يأوى إليه وإذا استقرت العقيدة في النفوس أصبحت مستعدة للتلقى للتنفيذ في الشرائع والأعمال، ولذلك نجد القرآن دائماً يربط بين العقيدة والتشريع .

٢- أثر هذه العقيدة في سلوك الفرد

يمتاز صاحب العقيدة عن غيره بمحافظته على جميع ما أمر به الله واجتناب جميع ما نهى الله عنه ، وإذا خالف لله أمرًا أو نهيًا فسَرعان ما يؤنبه ضميره ويرجع إلى ربه تائبًا مستغفرًا،لذلك لن أتناول أثر العقيدة على الفرد في محافظته على الصلاة والصيام والزكاة والحج والصدق والبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرحمة والعدل والإيثار وغيرها من الفضائل، ولن أتناول كذلك أثر العقيدة على الفرد من ناحية بعده عن الربا والزنا والسكر والكذب والظلم والعقوق والأنانية والحسد والحقد والسرقة والغش والخداع

وغيرها من الرذائل؛ لأن تحلي رجل العقيدة بالفضائل وتخليه عن الرذائل أمر بدهي لمن استقام على عقيدته وتفاعل معها تفاعلاً إيجابيًّا، ولأن كل آية في القرآن إنما هي دعوة لفضيلة أو نهي عن رذيلة، لذلك نكتفي بذكر أهم المميزات التي يمتاز بها رجل العقيدة غير ما تقدم وهي:

١ـ العقيدة تهب صاحبها عزة النفس؛ لما يشعر به من معية الله تعالى، لقوله سبحانه وتعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِين} ، ومن كانت هذه عقيدته فلن يستكين ولن يستعبد لغير الله تعالى وهذه الأنفة من الخضوع والعبودية لغير الله تعالى يصاحبها التواضع والرحمة لعبادة المؤمنين انطلاقًا من قوله تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين} ، والمؤمن يعلم أن واهب العزة هو الله {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاء} فعزة المؤمن عزة إيمان وحق، وعزة غيره عزة غرور وفجور وكبرياء.

٢- صاحب العقيدة رجل يحتكم إلى كتاب الله ولا يستبدل به حكماً آخر، ويرضى بحكم الله ولو كان الحق عليه؛ لقوله تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} وغير المؤمن يحتكم لقانون البشر الجائر قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} ٣- صاحب العقيدة رجل نشيط عامل منتج، لا يتكاسل ولا يتواكل، حريص على الوقت، لعلمه أن الله سائله عن عمره وعمله، فهو يعبد ربه باتقان عمله كما يعبد ربه بالصلاة والصيام، لقوله سبحانه: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}.

٤- صاحب العقيدة عنده إيثار وتضحية وشجاعة، لا يخاف من بذل الروح والمال؛ لأنه يرى أن ذلك عبادة لله، وغيره يحسب أن دفع الزكاة ضريبة، وأن الجهاد بالمال خسارة وبالنفس إلقاء في التهلكة، فيحسب أن الرزق والأجل بيده، فالبذل يفقر والجهاد يقصر العمر

والمؤمن يعلم أن كل ذلك بيد الله وأن روحه وماله ملك لدينه وعقيدته، يبذلهما عند الطلب، لإيمانه بقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} ، وقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُون} .

٥- صاحب العقيدة عنده سعة نظر ووضوح في الهدف؛لأن عقيدته الصحيحة تجيبه على كل سؤال من الأسئلة التالية: من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ فهو يرى نفسه إذن أنه لم يخلق عبثًا لقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ} ، إنما خلق لعبادة الله القائل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون} وغير المؤمن محتار في الأسئلة السابقة، ممزق النفس، نظره ضيق، وهدفه غير واضح، يمثل هذا عمر الخيام في قصيدته التي يقول فيها:

لبست ثوب العيش لم أستَشر ... وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني ولم ... أدر لماذا جئت أين المفر؟

٦- والعقيدة توقظ الضمير فتجعله مراقباً لله دائماً لا يعتريه ضعف ولا يتبدل بالأمكنة والأزمنة؛ لأنه مستند لعقيدة سليمة، فهو في حذر دائم ضد الشر وبواعثه، وضد النفس وشهواتها، وضد الشيطان ونزغاته، لقوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّا} لذلك عندما عمرت العقيدة الضمائر والقلوب،صلح الظاهر والباطن حتى كأن على كل إنسان شرطيًّا يراقبه لإيمانهم بقوله تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد} وبقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} ، فضمير المسلم إذن لا يعتمد على المراقبة الخارجية، بل هو نفسه مراقبة داخلية وحراسة مستمرة تمنع صاحبها عن اقتراب المعاصي ولو أتيحت له بعيدًا عن الأنظار.

٧- يمتاز صاحب العقيدة عن غيره بأنه مطمئن البال، مستريح الفكر، غير قلق على المستقبل ولا تمزق الأوهام نفسه؛ لأن له هدفًا يسعى إليه ومثلاً أعلى يطلبه، ألا وهو نيل رضوان الله وجن

ته وهو واثق أنه على الحق ولن يتسرب اليأس والقنوط إلى نفسه مهما واجهته من أخطار؛ لإيمانه بقوله تعالى: {إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ}

هذه الطمأنينة والثقة يفقدها غير المؤمن ولا يعوضها الغنى والترف لما نرى من كثرة حوادث الانتحار والتمزق النفسي في أكثر الدول غنى ورفاهية.

٨- صاحب العقيدة عنده قيم وموازين ثابتة يزن بها الناس وهي موازين عقيدته الثابتة، فالحق فيها حق والباطل باطل، والرذيلة فيها رذيلة والفضيلة فضيلة من عهد آدم إلى يومنا هذا، لقوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} فالمؤمن إذن ذو شخصية ثابتة، ومن موازينه في الناس قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِّ أَتْقَاكُم}. وفي الخسارة قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وفي الربح قوله تعالى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} .

٩- صاحب العقيدة يوالي ويعادي لله، ويحب ويبغض لله، فلن يوالي عدو الله ولو كان أباه أو ابنه، ولن يعادي ولي الله ولو كان بعيدًا منه، ولن يحب من أبغضه الله، كما أنه لن يعادي من أحبه الله، كل ذلك لإيمانه بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ}.

١٠- صاحب العقيدة تتوازن فيه الروح والعقل والجسم، فلا يطغى فيه جانب على جانب، فلا هو مفرط في الروحانية المعذبة لجسده والملغية لعقله، ولا هو مفرط في العقل حتى يحكّمه في الوحي والشرع، ولا هو مفرط في التربية الجسمية حتى يرتد كبهيمة هدفها الطعام والشراب كما تعتبره المذاهب المادية، وشعارهم في ذلك:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام ... فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام وهم في هذا كما وصفهم سبحانه وتعالى بقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُم} فالعقيدة توازن في الإنسان بين عقله وروحه وجسمه، فتجعله إنسانًا سويًّا، والمذاهب المادية التي ألغت اعتبار الروح جعلته نصف إنسان، ومن هنا يحدث القلق والاضطراب والحيرة والتمزق النفسي.

د- أثر العقيدة في سلوك المجتمع

إن ما تقدم من تأثير العقيدة في سلوك الفرد هو كذلك تأثير للعقيدة في المجتمع، لأن الأفراد هم لبنات المجتمع، فصلاحهم صلاحه وفسادهم فساده، وكل جهد لتربية الفرد الصالح على العقيدة، هو جهد أصيل لتكوين المجتمع الصالح، لما يوجد من علاقة وثيقة بين الفرد والمجتمع وليس من السهل أن تؤثر عقيدة ما في الفرد دون أن ينعكس ذلك على المجتمع ولو على المدى البعيد؛ لذلك كان صلاح المجتمع بعد تطهير العقيدة من الشوائب الدخيلة عليها معتمدًا على تطهيره مما شانه من أعمال يقوم بها أفراده مناقضة للعقيدة ونلخص أبرز آثار العقيدة في المجتمع فى:-

١- أمة العقيدة أعرق أمة في التاريخ، وتاريخها حافل بالوقائع والتجارب، قادتها الرسل، وقد بين الله للمؤمنين أمتهم الواحدة من اتباع الرسل بقوله تعالى في نهاية عرض قصص الأنبياء مع أقوامهم المكذبين : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} ، وأول قائد لهذه الأمة العريقة هو آدم عليه السلام وآخر قادتها وأجلهم محمد صلى الله عليه وسلم ثم من سار على نهجه إلى يوم الدين وهذا التراث الكبير والتجارب العميقة تشكل الذخيرة الحية لأمة العقيدة، وهي الحضارة التي تملك الأمة أن تقدمها للإنسانية وهي واثقة ومطمئنة أنها ليست بحاجة لاستيراد القيم والأخلاق والعقائد من الأمم الكافرة؛ لأنها أمة متبوعة لا تابعة لغيرها.

٢- أمة العقيدة تتلقى الوحي للتنفيذ، لامجال عندها للتردد ومخالفة الأوامر، فإذا نزل القرآن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء انقلب كل رجل إلى أهله يتلو عليهم ما أنزل الله تعالى، فيبادر الجميع لامتثال المأمور به واجتناب المنهي عنه.

٣- إن أمة العقيدة أمة لا تعيش لذاتها ومصالحها فقط، بل تحمل على عاتقها مسئولية إنقاذ البشرية مما هي فيه من الضلال، لأنها تشعر بنعمة اهتدائها إلى الله، لذلك تحب أن تهدي غيرها من الأمم وتشعر بخيريتها على سائر الأمم، لا خيرية الجنس واللون، لكن خيرية الدين والعقيدة انطلاقاً من قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}فأمة العقيدة تتعامل مع غيرها على هذا الأساس، وهذا هو الذي أخرج الصحابة من ديارهم وأموالهم يطوفون مشارق الأرض ومغاربها يهدون للنور الذي هداهم الله إليه، لا كما يزعم أعداء الله أنهم خرجوا طلباً للقوت واستعمار الأمم والشعوب.

٤- أمة العقيدة هي الأمة الوحيدة التي يستوي فيها الناس جميعاً حاكمهم ومحكومهم، ويستطيع الفرد العادي فيها أن ينصح الحاكم دون هيبة من سلطانه؛ لأنه يعلم أن الحاكم منفذ للدين وحارس للشريعة، ولذلك كان علماء الإسلام يناقشون الحكام وينصحونهم

وإن زلوا يحاكمونهم إلى الشرع.

٥- أمة العقيدة أمة عزيزة الجانب مصونة لا تقيم حرباً أو سلماً إلا على أساس عقيدتها كما كان عمل الرسول صلى الله عليه وسلم أول مقدمه إلى المدينة مع مختلف الطوائف داخل المدينة وخارجها من الممالك والإمارات، وإذا جاهدت أمة العقيدة فليس هدفها من الجهاد إراقة الدماء ونهب الأموال،إنما هدفها تحرير الإنسانية من الحكام الكفرة، الذين يحولون بين أممهم وبين الدين الحق وأمة العقيدة تعلل كل وقائعها وانتصاراتها على ضوء عقيدتها،وكذلك إذا هزمت فإنها تقيس ذلك بميزان عقيدتها لتتعرف على عوامل هزيمتها مؤمنة بقوله تعالى: {إِنَّ اللهَّ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم}.

٦- أمة العقيدة تقوم الروابط بين أفرادها على العقيدة؛ لأن الروابط الأرضية من الجنس واللون واللغة والأرض والمصالح المشتركة، روابط ليس للإنسان فيها اختيار، فهو لن يستطيع اختيار جنسه ولونه ولغة قومه والأرض التي يولد فيها ،وهذه الروابط الأرضية لا تدوم ،

فسَرعان ما يدب الخلاف بين أصحابها، أما رابطة العقيدة فهي أقوى وأقوم، لذلك كان المجتمع الإسلامي الأول يضم العربي والفارسي والرومي والحبشي والهندي، هذه الجنسيات كلها يجمعها اسم الأمة الإسلامية، بدون فوارق عرقية أو طبقية ولقد قامت الإمبراطورية الرومانية قديماً على أساس طبقي:العبيد والأشراف، وتقوم الشيوعية حالياً بالتفريق بين العمال وأصحاب رءوس الأموال، وكذلك المجتمعات الغربية تفرق على أساس العرق واللون، وهذا ما يؤكد أنه ليس هناك مجتمع عالمي إنساني مفتوح لكل أبناء البشرية غير مجتمع العقيدة الإسلامية لذلك لما شعر أعداء الأمة الإسلامية بالخطر، وتنبهوا لسر قوتها، لجأوا لتحطيم هذه القوة بإقامة أصنام سموها الوطن والقوم والجنس وهي التي ظهرت على مدى التاريخ باسم الجنسية الطورانية أو القومية الفرعونية والفينيقية والفارسية والعربية، وغيرها من الأسماء والشعارات التي لم تلق رواجاً إلا عندما ضعفت العقيدة في النفوس، فأصبحت هذه الأصنام والشعارات مقدسات

ويعتبر الخارج عليها كافراً بوطنه وقوميته خائناً لبلده يجب محاربته والقضاء عليه.

٧- مجتمع العقيدة مجتمع يفتخر بأصله ويعتز بانتسابه لآدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، وكل ما في الكون مسخر لخدمته ونفعه لقوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأنهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}.

٨- مجتمع العقيدة مجتمع قوى متماسك يشد أفراده على أيدي بعضهم بعضاً كأنهم بنيان مرصوص، آمالهم وآلامهم واحدة؛ لأنها نابعة من عقيدتهم، وكلهم يسعون لتحقيق العدل والمحبة والأخوة، ليعيش كل فرد في هذا المجتمع آمناً على دينه وروحه وعقله وماله وعرضه، ولكل فرد في مجتمع العقيدة حق العمل، وإلا فالدولة توفر الضروريات للعاجزين عن العمل وللذين لا يجدون ما يكفيهم.

- أمثلة لآثار العقيدة

نذكر فيما يلي أمثلة من أبرز آثار العقيدة باختصار :

١- سحرة فرعون يقولون له بعد أن هددهم لما آمنوا بموسى ما قاله تعالى عنهم: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} ويصبرون للصلب والتقطيع حتى الموت، ونالوا الشهادة صابرين.

٢- أصحاب الأخدود يلقون الموحدين في النار فيموتون فيها، حتى لا يكفروا وقد ذكرهم القرآن بالثناء عليهم وذم من عذبوهم .

عندما استشار يهود بني قريظة أثناء الحصار أبا لبابة فأشار لهم بأنه الذبح قال: والله مازالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم انطلق إلى المسجد فربط نفسه بعموده حتى نزلت توبة الله عليه وحله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- عمير بن سعد في حجر زوج أمه جلاس بن سويد بن الصامت، فقال جلاس في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة نابية، فقال عمير: يا جلاس، إنك لأحب الناس إليّ وأحسنه عندي يدًا، وأعزه أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك، ولئن صمت ليهلكن ديني ولأحدهما أيسر على من الآخر، ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

٥- الإمام أحمد بن حنبل يطلب منه المأمون أن يقول بخلق القرآن فيرفض، فيسجنه ببغداد مقيداً بالسلاسل، ويأتي المعتصم بعد المأمون فيزيد البلاء بالضرب والسحب ويتناوب عليه الجلادون وبعضهم يقول: يا أمير المؤمنين: دمه في عنقي ليغريه بقتله، ولا يزيد الإمام أحمد على قوله: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويبقي في السجن ثلاثين شهراً يقاوم السلطان، حتى انتصر رحمه الله عليهم بغير جيش ولا سلاح، إلا سلاح الإيمان والصبر والتمسك بالعقيدة الصحيحة، فكانت فتنته نهاية لهذا المذهب، فمن زمانه دفنت هذه العقيدة في بطون الكتب فأصبح حب أحمد شعار أهل السنة.

٦- شيخ الإسلام ابن تيمية يحاسب غازان التتري رابع ملك مسلم من التتار الذي احتل دمشق حتى شرد أهلها وبقي شيخ الإسلام بفئة قليلة فخرج إليه وقال له: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضٍ وإمام ومؤذن، فعلام تغزو بلادنا؟ أبوك وجدودك كانوا كافرين وما غزونا بعد أن عاهدونا وأنت عاهدت فغدرت ولما قدم له غازان الطعام رفض أكله قائلاً: نهبتم أغنام الناس وطبختموها بأشجار الناس ودار بينه وبين غازان جدال طويل لم يخش فيه سلطانه وهيبته.

الباب الثالث

دور العقيدة في بناء الحضارة

☆☆☆

تكفل القرآن الكريم والسنة النبوية بشرح العقيدة وما يحتاج إليه المسلم من العلم بعالم الغيب بأدلة وبراهين مقنعة، ثم أمر الإسلام بأن لا يخوض المسلم في عالم ما وراء الطبيعة الميتافيزيقيا بل يشغل عقله وفكره بعالم المادة والطبيعة لإنتاج العمل الصالح وخدمة الإنسان وتعمير الكون في ضوء منهج الصلاح، لذلك اهتدى المسلمون إلى المنهج التجريي الذي أخذه الغرب فيما بعد وبنى عليه حضارته القوية لذلك تمتاز العقيدة الإسلامية بهذه المميزات التالية:

١- وضوح الرؤية لكل ما يحتاج إليه الإنسان.

٢- الطمئنينة والسكينة والقناعة من خلال الإيمان بالقضاء والقدر.

٣- فهم الأشياء على حقيقتها.

٤ـ الصبر والجرأة والشجاعة في مواجهة الشدائد وعدم الانهيار أمام المصائب مهما كانت كبيرة وعدم الطغيان والتجبر والتكبر مهما أقبلت الدنيا على الإنسان كما قال تعالى: لِكَيْلا تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) :عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن.

٥ـ الإيمان بالمساواة بين البشر وتحقيق العدل والتكافل الاجتماعي، لأن ربهم واحد فهو خلقهم، من أصل واحد، وأوجب عليهم ما يحقق العدل والخير للجميع.

دور الحضارة الإسلامية فى الحضارات اللاحقة

لقد أوضح الفيلسوف المعروف جارودي دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة فذكر أنه عندما رحل الراهب الفرنسي جربير للدراسة في جامعة قرطبة قفل راجعاً وقد بلغ من العلم مبلغاً صار يتهم بأنه قد فاق الشيطان، ثم أصبح بعدئذ بابا باسم سلفستر الثاني وأن الحضارة الغربية تدين للعلوم الإسلامية في مجالات الطب والحساب والجبر، والبصريات، والفلسفة، والمنطق، وغيرها، فقد كانت جامعات أوروبا في فرنسا وبريطانيا تدرس كتب الرازي، وابن رشد، وابن الهيثم، وغيرهم في القرن السادس عشر في فرنسا، ومنتصف القرن التاسع عشر في انجلترا ولم تقف استفادة الغرب من المسلمين عند الجانب النظري بل استفاد من المراصد والخرائط، واكتشاف الأرقام العربية، والصفر والمواد الكيماوية والصيدلة والصناعية

ونحوها وفي مجال العلوم الإنسانية يتحدث جارودي عن ابن خلدون بأنه مخترع مفهوم علمي عن التاريخ وعن علم الاجتماع، وأن هذه الشخصية لا يمكن أن تظهر من فراغ، بل تدل على نمو الفكر الإسلامي في عصره في مجال العلوم الاجتماعية ويذكر جارودي أن العلوم تجمدت في أوروبا، لأن الكنيسة أبدت ريبة تجاه الطبيعة زاعمة أنها تبعد عن الإله، وهكذا استمرت تجارب العلوم عبر تاريخها، بينما انطلق العلم في الإسلام من مبدأ الوحدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة وعلم الكلام والفلسفة والفنون المختلفة، وبين رسالة المسجد والمدرسة، وكانت جامعات القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة، وسمرقند، وقرطبة، معالم إشعاع ليست للعالم الإسلامي بل لأوروبا التي تأثرت بها وأسست كليات الطب في سالونيك بايطاليا، ومومباليه بفرنسا على غرار كليات الطب الإسلامية.

وفي مجال الرياضيات كانت مساهمة المسلمين عظيمة في نهضة أوروبا وساعدت على تطوير الحساب والجبر، ولا أدل على ذلك من الأعداد التالية) ٤٤٤٤ (تكتب على هذا النحو) F I L K S S S M M M M (وكان من الصعوبة بمكان إجراء أية عملية حسابية أو جبرية مع هذه الرموز.

ولم يكن حظ علم الاجتماع أقل شأناً من بقية العلوم، فكان لابن خلدون دور كبير في بلورة الأسس العلمية له، كما تفوق علماء المسلمين على علماء الفلك اليونانيين سواء في مجال الملاحظة أو القياسات كما عملوا على تطوير الجغرافيا والرياضيات .

العقيدة وبناء المجتمع الفاضل

وإذا أردنا أن نؤسس مجتمعاً نظيفاً تسوده العدالة، وتحكمه الفضيلة ، وتختفي منه الجريمة، وتظلله الطمئنينة، ويتعاون أفراده على كل ما فيه خيره وصلاحه ينبغي أن نؤسسه على عقيدة صحيحة، تكون دعامة لذلك البناء، وليست العقيدة الصحيحة ضرورية لبناء المجتمع الفاضل فحسب، بل ضرورية كذلك لبقائه سليماً قوياً مترابطاً، لا تفسده المغريات والفتن، ولا تفت في عضده العقبات والمعوقات.

والإسلام العظيم منهج رباني متكامل، تقوم شرائعه وأحكامه على العقيدة الصحيحة، وتدور كلها حولها، وترجع في مسيرتها إليها، ولا يمكن أن يستقيم منها تشريع أو حكم، إلا إذا كان مؤسساً على العقيدة الصحيحة ، فهي التي تعطيه صفة الإلزام، وتجعله واجب الطاعة والاحترام.

لذلك كان الإيمان بالله وتوحيده أول ما دعا إليه الرسل، وأول ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكث ثلاثة عشر عاماً، لا هم له إلا تأسيس العقيدة والدعوة إليها، وتثبيتها في قلوب أصحابه، فلما هاجر إلى المدينة، ونـزلت آيات التشريع والأحكام وجدت القلوب المؤمنة مستعدة لتقبلها والإذعان له وعلى هذا الأساس ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمعاً فاضلاً، وكون أمة إسلامية استطاعت بعد ذلك أن تسود العالم، وأن تجعل كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

البناء الفكري

تحرير فكر الإنسان

ترتكز نظرة العقيدة الإسلامية على كون الإنسان موجوداً مكرَّماً : (ولقَدْ كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهم من الطَّيبات وفضَّلناهُم على كثيرٍ ممَّن خلقنا تفضيلاً) [1] فهو خليفة اللهّ في الأرض ، يمتلك العوامل التي تؤهّله للسمّو والارتفاع إلى مراتب عالية :

(وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الارض خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونُقدسُ لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمون) [٢]كما أن بإمكان الإنسان أن ينحطّ ويتسافل حتى يصل إلى مرتبة الحيوان :(... أخلدَ إلى الأرضِ واتَّبعَ هواه فمثلهُ كمثل الكلبِ إن تحمل عليهِ يلهث أو تتركه يلهث ..) [٣]ثم يتسافل أكثر فأكثر حتى يصل إلى مرتبة الجماد: (ثمَّ قست قُلوبُكُم من بعدِ ذلك فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوة ..) [١] وعليه فالعقيدة الإسلامية تراعي في الانسان عوامل القوة والضعف معاً ، فقد وُصف الإنسان في الكتاب الكريم بأنّه خُلِق ضعيفاً هلوعاً عجولاً ، وأنه يطغى ، وأنّه كان ظلوماً جهولاً فالعقيدة الإسلامية إذن تعتبر عوامل الضعف في الإنسان حالة طبيعية ناتجة عن تكوينه البشري ، ولم ترها معقدة بالمستوى الذي يفقد الإنسان معها قدرته على البناء والحركة ، وحرية الاختيار.

الخطيئة أمرٌ طارئ

من ناحية أخرى فالعقيدة الإسلامية تعتبر الخطيئة أمراً طارئاً على الإنسان ، وليس ذاتياً أصيلاً ، وعليه فحين يسقط الإنسان في مهاوي الخطيئة ، لا يتحول إلى شيطان تمنعه شيطنته من العودة إلى رحاب الإنسانية ، بل يبقى إنساناً مخطئاً يمكن أن يسعى إلى تصحيح خطئه ، والنهوض من كبوته وهذا هو سر عظمة النظرة الإسلامية إلى الإنسان ، فهي لا تجعله تحت رحمة الشعور بخطيئة أصيلة مفروضة عليه ، كما تفعل النصرانية بل تسعى إلى انتشال الإنسان من وحل الخطيئة وإشعاره بقدرته على الارتقاء ، وتذكيره الدائم بعفو اللهّ ورحمته الواسعة ، وعدم اليأس منها ولا يوجد في الإسلام كرسي للاعتراف كما في النصرانية ، بل يسعى أئمة الدين وعلماؤه إلى ستر عيوب الناس وذنوبهم كلما أمكن ذلك ، لأن اللهّ تعالى يحبَّ الستر عن الاصبغ بن نباتة قال : أتى رجل أمير المؤمنين عليهالسلام

، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي زنيت فطهّرني ، فأعرض أمير المؤمنين عليه‌السلام بوجهه عنه ، ثم قال له : اجلس ، فأقبل عليّ عليه‌السلام على القوم ، فقال : أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه.

الإنسان موجود مكرَّم

ومن جانب آخر تحاول العقيدة إشعار الإنسان على الدَّوام بأنّه موجود مكرَّم ، له موقعه المهمّ في هذا الكون ، من خلال وظيفة الاستخلاف فيه وما عليه إلاّ أن يقوم بأداء وظيفة الاستخلاف هذه على أحسن وجه ، وأن يشكر خالقه على هذا التكريم والتمكين والهداية إلى الدين الحق.

سأل رجلٌ أمير المؤمنين عليه‌السلام عن حبه للقاء الله تعالى ، فقال : بماذا أحببت لقاءه؟ قال عليه‌السلام : لمَّا رأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه ، علمت أنَّ الذي أكرمني بهذا لن ينساني ، فأحببت لقاءه.

معالم التحرير

ولقد أسهمت العقيدة إسهاماً فعالاً في تحرير الإنسان على محاور عدّة ، منها : -

أولاً : - حرَّرت الإنسان من الاستبداد السياسي ، فليس في الإسلام استبداد إنسان بآخر ، أو تسخير طبقة أو قومية لأخرى (فقد كان الدين ، على امتداد التاريخ الإسلامي ، من أبرز العوامل لظهور حركات التحرر ومهما تكن نظرة الباحث تجاه الدين فلا يستطيع إبعاد العامل الديني وأثره في بناء الوعي الثوري خلال هذه الفترة من تاريخ الاسلام.

فلم تكن ثورة أبي ذر رحمه الله وثورة الحسين عليه السلام إلاّ منطلقا لاتّجاه واعٍ لتصحيح الانحراف في تاريخ الإسلام ورغم كل الانحراف الذي تعرض له المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل لم ينعدم في فترة من هذا التاريخ اتجاه ثوري قوي في إعادة الإسلام إلى مجري الحياة والقضاء على الظلم والاستغلال واستعادة حقوق الانسان المسلم وكرامته كما حرَّرت العقيدة الاسلامية الانسان من عادة تأليه البشر

كعبادة الملوك والأسر الحاكمة ، وهي عادة كانت سائدة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء ، وقد أبطل الإسلام نظريات التمييز بين إنسان وآخر ، سواء على أساس الجنس أو اللغة أو اللّون أو المال أو القوة ، ومقياس التفاضل ينحصر في أمور معنوية هي التقوى والفضيلة ، قال تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلقناكُم مِن ذكرٍ وأُنثى وجَعلنَاكُم شُعُوباً وقبائل لِتعارفُوا إنَّ أكرمكُم عندَ اللهّ أتقاكُم إنَّ اللهّ عَليمٌ خبيرٌ) فالإسلام يحتل الأسبقية بإعلان مبدأ الحرية قبل الثورة الفرنسية بأكثر من عشرة قرون قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبةٍ له : أيُّها الناس إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أمة ، والنّاس كلّهم أحرار إلاّ أنّ الإسلام لم يجعل هذه الحرية الممنوحة للإنسان مطلقة ، بحيث يُطلق العنان للإنسان ليفعل ما يشاء ، بل جعل للحرية ضوابط وكوابح حتى لا تؤدي إلى فوضى.

ومن هنا يبرز الفرق الشاسع بين العقيدة الإسلامية التي تربط الحرية الإنسانية بالعبودية لله تعالى والخضوع الواعي الطوعي لسلطته ، وبين القوانين الوضعية التي تُلقي الإنسان في تيهٍ لا يتفق مع قدرته ولا مع طبيعته ولا بدَّ من التوازن بين الحرية والعبودية ، وليس هناك توازن في هذا السبيل يطلق قدرات الإنسان ، ويحافظ على طبيعته في آن واحد ، إلاّ بما نجده في الإسلام ؛ عبودية لله ، وحرية من سائر العبوديات ، فلا تكتمل حرية العبد إلاّ بعبوديته لله ولا تكتمل عبوديته لله إلاّ بتحرره من عبادة سواه ، فهنا توازن واتّساق واضح بين الجانب الاجتماعي والجانب الإيماني في شخصية المسلم عن طريق الحرية كما يراها الإسلام وعلى ضوء ما تقدم ، فالعقيدة تُقرِّر حقيقة أساسية هي أنّ جوهر الحرية الحقيقية ، هو العبودية لله ، لأنّها تعني التحرر من جميع السلطات الجائرة ، وليس في العبودية لله أي امتهان لكرامة الإنسان ، بل تعزّز شخصيته وتحافظ على مكانته ، فقد كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم يتشرف بكونه عبداً لله

، ويحب أن يطلقوا عليه صفة العبودية ويرفض الغلوّ الذي قد يؤدي إلى التأليه الباطل ، كما حدث لأهل الكتاب رغم التحذير الإلهي لهم من الغلو في أشخاص رسلهم ، قال تعالى :(يأهلَ الكِتَابِ لا تَغلُوا في دينِكُم ولا تقُولُوا على اللهّ إلاّ الحَقَّ إنَّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسُولُ اللهّ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منهُ ..) .

إنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تحارب فكرة تأليه البشر من خلال التركيز على صفة العبودية أحياناً وفكرة تأليه البشر كانت سائدة في الأمم الأخرى ، وتسرّبت إلى أتباع الأديان السماوية فخالطت عقائد بعضهم ، فالمسيحية على سبيل المثال تدَّعي إلوهية المسيح ، واليهودية تزعم أنّ عزيراً ابن اللهّ!

ثانيا : حرَّرت العقيدة الإسلامية الإنسان المسلم من شهوات نفسه بعد ما ربطت قلبه باللهّ والدار الآخرة ، ولم تربطه بأهوائه ونزواته ، لقد زودت العقيدة عقل المسلم وإرادته بالحصانة الواقية من الانحراف أو إيثار العاجل الفاني على الآجل الباقي .

ثالثا : إنّ العقيدة الإسلامية حرَّرت الإنسان من عبادة الطبيعة ومن تقديس ظواهرها ، ومن الخوف منها ، يقول تعالى : « ومِن آياتِهِ الليلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمرُ لا تسجُدوا للشمسِ ولا للقمرِ ...) فلقد مرَّ الإنسان بمرحلة الحيرة والتساؤل والقلق من مظاهر الطبيعة من حوله ، فهو لا يعرف شيئا من أسرارها وأسباب تقلّب أحوالها ، فأخذ يقدّسها ويقدّم لها القرابين بسخاء ، متصورا أنّه سوف يأمن بذلك من ثورات براكينها الملتهبة وزلازلها المدمّرة وسيولها الجارفة وصواعقها الحارقة ، فعملت العقيدة على تنقية العقول من غواشيها ، وفتحت الطريق أمامها واسعاً لاستثمار الطبيعة والتصالح معها ،

عندما رفعت ما كان من حجب كثيفة بين الإنسان والطبيعة ، وانكشف له أنّ الطبيعة ومظاهرها وما فيها من مخلوقات وحوادث كلها ، ومخلوقات مسخّرة لخدمته ، وما عليه إلاّ أن ينتفع بها ويتفكر فيها حتى يصل عن طريقها إلى الخالق : (أفلا يَنظُرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلقت * وإلى السَّماء كيفَ رُفِعت * وإلى الجِبالِ كيف نُصِبت * وإلى الأرضِ كَيفَ سُطِحت) ولا بدَّ من الاشارة إلى أنّ منهج العقيدة في بناء الإنسان يُنظّم علاقة الإنسان بنفسه وبربّه وبالطبيعة من حوله ، وكل توثيق أو تطور في العلاقة بين الإنسان وربّه سوف ينعكس إيجابياً على علاقته مع الطبيعة المسخّرة بيد الله تعالى ، فتجود على الإنسان المؤمن بالخير والعطاء ، لذلك طلب النبي هود عليه‌السلام من قومه الذين ابتعدوا عن منهج السماء فحُبس عنهم المطر ثلاث سنين وكادوا يهلكون أن يستغفروا ربّهم عما سلف من ذنوبهم ، وأن يتوبوا إليه قال لهم : (يا قومِ استغفرُوا ربَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إليهِ يُرسِلِ السَّماءَ عليكُم مِدرارا ويَزِدكُم قُوَّةً إلى قوَّتِكُم ولا تَتولّوا مُجرمين) وعليه فالعبادة الحقة ،

يجب أن تكون لله وحده ، والخوف يجب أن يكون من الذنوب ، التي تُثير سخط اللهّ وتجلب انتقامه ، فيستخدم الطبيعة أداة للعقوبة ، كما أغرق اللهّ فرعون باليّم ، وأرسل الريح العقيم التي أهلكت قوم عاد ، وهكذا نجد أنّ أكثر العقوبات التي حلّت بالكافرين قد نُفّذت بواسطة قوى الطبيعة ، مما يكشف لنا العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وفي هذا الصدد نجد فى الأثر « وجدنا في كتاب رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم إذا منعوا الزّكاة منعت الأرض بركتها من الزّرع والثمار والمعادن كلّها وإذا أمسكت الزكاة هلكت الماشية ، وإذا جار الحكام في القضاء أمسك القطر من السماء .. » .

وجملة القول أنّ خوف الإنسان يجب أن يتركز على الذنوب والخطايا التي تسبب تدمير المجتمعات ورفع البركات ، أما الخوف من الطبيعة والاعتقاد بأنّ بعض ظواهرها شرور لا تجتمع مع النظام السائد على العالم أولاً وحكمته وعدله ثانيا ،

فإنّما هو ناشيء من نظراتهم الضيّقة المحدودة إلى هذه الامور ، ولو نظروا الى هذه الحوادث في إطار النظام الكوني العام لأذعنوا بانها خيرٌ برمتها ، فللوهلة الاولى تتجلى تلك الحوادث شراً وبلية ، ولكن المتعمّق فيها يرى أنّها مدعاة إلى الخير والصلاح ، وتفصيل فلسفة البلايا والشرور في العالم موكول إلى علم الكلام ، ولكن نعود ونؤكد أن العقيدة الإسلامية أعادت صياغة عقل الإنسان تجاه الطبيعة المحيطة به ، بشكل يجعله أكثر حريةً وتفاعلاً معها.

رابعاً : تحرير الإنسان من الأساطير ومن الخرافة في الاعتقاد أو السلوك ، من أجل رفع الحواجز الوهميّة التي تحول دون استخدام طاقة العقل على نحو سليم ، وكان الإنسان الجاهلي على سبيل المثال يتفاءل ويتشائم بحركات الطير ، فينطلق نحو الفعل إذا اتجه الطير يميناً ، ويتراجع عن العمل إذا اتجه الطير شمالاً ، وكانت طبقة الكهّان والمنجمين تحتل موقع الصدارة في السلّم الاجتماعي وتخدع الناس بادعائها علم الغيب ،

وكان التطيّر يقيد الناس بحبال الوّهم عن السعي والسفر ، وكذا كان الاستقسام بالازلام ، إذ يأخذ من قصد عملاً ثلاثة سهام ، يكتب على أحدها : إفعل وعلى الآخر : لا تفعل ويترك الثالث هملاً ، ويمد يده ليأخذ أحدها ، فإن خرج الأول أقبل على عمله ، وإن أصاب الثاني توقف ، وإن خرج الثالث أعاد الكرّة! وكان السحر متفشيا بين الناس ينذر بشرّ مستطير ، فعملت العقيدة على محاربة هذه المظاهر ، وكانت سبباً لتفتح العقول والسمو بالنفوس ، وإخراج الناس من ظلمات الوهم والخرافة إلى نور العلم والحقيقة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس منّا من تطيّر ولا من تُطيّر له ، أو تكهّن أو تكُهّن له ، أو سحر أو سُحر له وقال أيضاً : من ردّته الطِيَرة عن حاجته فقد أشرك وحرَّرت العقيدة عقل المسلم من استنتاجات المنجّم ، فاعتبرت المنجّم كالكاهن ، كلاهما يسعيان إلى تقييد حركة الإنسان في الحياة والتلبيس على عقله .

للعقل مكانة كبيرة في الدين الإسلامي ، فهو أصل في التوصّل إلى الاعتقاد الصحيح ، ودليل من أدلة الاجتهاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولكلِّ شيء دعامة ، ودعامة الدين العقل ويشكّل العقل دعامة الإنسان المؤمن قال صلى الله عليه وسلم : من كان له عقل كان له دين ، ومن كان له دين دخل الجنة » وقد بلغت النصوص التي تتناول التنبيه إلى دور العقل المئات ، ومن خلال نظرة عامّة إلى هذه النصوص نكتشف أن دور الإسلام في إعطاء العقل دوره الحقيقي قد جاء على مرحلتين ؛ فهو يبتدئ بتحرير العقل ، ثم ينتقل إلى توجيه طاقاته.

تحرير العقل :

هذه الخطوة الأولى من خطوات المشروع الإسلامي نكتشفها في النصوص التي توجهت إلى نبذ القيود التي تقيّد العقل وتمدُّ من نشاطه الحقيقي ، وتقوده إلى أخطاء خطيرة بسبب ذلك وهذا ما نجده في نموذجين بارزين :

الأول : نبذ التقليد الأعمى : وأمثلته في القرآن الكريم كثيرة جداً ، نقرأها في سور ومشاهد متعدّدة :فبينما كان يؤكد افتقارهم إلى أدنى حجّة ذات قيمة في ما يعتقدون من عبادة الأوثان والعقائد الزائفة ، ركّز على أنَّ كلّ ما يمتلكونه من حجّة هو أنّهم وجدوا آباءهم على ذلك ، فتمسّكوا به « بَل قالُوا إنّا وجَدَنا آباءَنا على أُمَّة وإنَّا على آثارِهِم مُهتَدُون » ثم يؤكد أنّ هذا هو ديدن هذا الصنف من الناس الذي أغلق على ذهنه المنافذ (وكذَلِكَ ما أرسلنَا مِنْ قَبلِكَ في قَرَيةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُترفُوها إنّا وجدَنا آباءَنا على أُمَّة وإنّا على آثارِهِم مُقتَدُون) وهكذا يسوق مقولتهم هذه مرتين في آيتين متتابعتين ليجسّد ما تنطوي عليه هذه المقولة من تهافت ، وما يغيب فيه هؤلاء من جهل متجذّر موروث لا يصغي لدعوة حق ولا لبرهان ساطع بل ليس لديهم أكثر من ترديد مقولتهم تلك (أجِئتَنا لتَلفِتنا عمّا وجَدنا عليهِ آباءَنَا)؟! حتى لو جاءهم متحدياً لما وجدوا عليه آباءهم مبيِّنا فساده

(قال أوَلو جِئتُكُم بأهدى ممَّا وجدتُم عليهِ آباءَكُم)؟ حتى مع مثل هذه الاستثارة لا يبحثون عن برهان ، ولا يفتحون نافذة للنظر ، بل وقفوا دائماً بتحجرّهم الأوّل ، و(قالُوا إنّا بِما أُرسِلتُم بهِ كافِرُونَ) و(قالُوا حَسبُنَا ما وَجَدنَا عَليه آباءَنا)!! ويكرّر القرآن النكير على هؤلاء في مواضع أخر ، لأنّه إنما يواجه في نظريات استحكمت وترسخت لدى أمم متتابعة ، لا يستبعد أن يكون لها امتداد في مستقبل الأمم أيضاً فلقد تجاوزت هذه النظرية حدود المعتقدات إلى السلوك والمعاملات (وإذا فَعلُوا فَاحِشةً قالُوا وجَدنا عَليها آباءَنا) و(قالُوا بَل وَجَدنَا آباءَنا كذلِك يَفعلُونَ) بعد هذا يبيّن القرآن الكريم الجزاء الذي ينتظر قوماً مضوا على هذا النهج ، مثيراً الاذهان إلى ضرورة الحذر من نهجٍ كهذا (فانتَقمنا مِنهُم فانظُر كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذّبينَ) .

توجيه طاقة العقل

بعد أن حرّرت العقيدة الإسلامية العقل من القيود التي تأسره ، أطلقته إلى الأمام وهي توجه طاقاته من خلال اللفت والتدبر في الكون والحياة ، من أجل بناء متكامل ديناً ودنيا ويمكننا أن نشير إلى مجموعات من آيات الذكر الحكيم توجه العقل إلى آفاق رحيبة متعددة ، منها :

أولاً : التدبر في آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس :

قال تعالى : (إنَّ في خَلق السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيلِ والنَّهارِ لأياتٍ لأُولي الألبابِ * الّذينَ يَذكُرُونَ اللهّ قِياما وقُعودا وعلى جُنُوبهم ويتفكَّرُونَ في خَلقِ السمواتِ والأرض ربَّنا ما خلقتَ هَذا باطلاً سُبحانَكَ فَقِنَا عذابَ النَّارِ)ومما يلفت النظر عناية القرآن بذكر مشاهد الكون عناية كبيرة من خلال تكرار عرضها في أكثر من سورة ، ودعوته الإنسان بإلحاح إلى النظر والتأمل فيها ، والتفكر في مجرى حوادثها ، والأهم من ذلك كلّه جعل هذا الكون منطلقاً للوصول إلى اللهّ تعالى خالقه ومبدعه.

وقد ورد عن رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ : (إنَّ في خلق السَّمواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لأياتٍ لأُولي الألبابِ * الّذينَ يَذكُرُونَ اللهّ قِيامَا وقُعودا وعلى جُنُوبهم ويتفكّرُونَ في خَلَقِ السَّمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خلقتَ هذا بَاطِلاً سُبحانَكَ فَقِنَا عذابَ النَّارِ) ويقول : « ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

ثانياً: النظر في سنن التاريخ : حيثُ دعتنا العقيدة إلى تأمل أحداث التاريخ بنظر ثاقب ، وفكر فاحص ، وصولاً إلى العوامل التي كانت سبباً في تدهور المجتمعات ، وسقوط الحضارات ، أو نموّها ، قال تعالى : (قد خلت من قبلكم سُنن فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) إنّها دعوة تريد من الناس أن يحركوا عقولهم ، وينظروا في تاريخ من قبلهم ، حتى لا يكونوا كالقطيع التائه يسير بلا راع نحو المجهول ، وهي دعوة ذات منهج مرسوم من أجل الاستفادة من تجارب الحضارات السابقة ودراسة أسباب سقوطها ، لا سيّما وأنّ التاريخ يعيد نفسه قال تعالى : (سُنَّة اللهّ في الذِينَ خلوا من قَبلُ ولن تَجِدَ لسُنَّةِ اللهّ تبديلاً)

ولا بدَّ من التنويه على أنّ دور الدين ومسؤوليته في حياة الإنسان هو إيجاد جوّ من الملائمة والانسجام بين سلوك وتفكير الإنسان وبين سنن اللهّ تعالى في الحياة ، وتحويل مجرى حياة الإنسان إلى تيار هذه السنن الإلهية التي جعلها اللهّ نظاماً لخلقه وتكوينه في هذا الكون فالدين يوجّه فكر الإنسان إلى النظرة العميقة الهادفة ، وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين النَّظرة السطحية الساذجة للحياة والتاريخ ، وبين النظرة العميقة والمتفحصة التي لا تقتصر على ملاحظة الشيء أو الحدث ، وإنّما تنفذ إلى أعماقه ، وترصد لوازمه ودلالاته بغية استنباط السُنّة التاريخية التي تنطبق عليه ، فعلى سبيل المثال يمر السائح على أهرامات مصر ، فينبهر لروعة بنائها ، وشدة ارتفاعها ، ويتمتع بمنظرها وينتهي كل شيء أما المفكّر الواعي المتسلح بالعقيدة ، فعندما يمر عليها ،

ترتسم في ذهنه عدَّة تساؤلات : عن قدرات الإنسان ، وعن الظلم الذي كان سائداً آنذاك من خلال تسخير الفراعنة لأعداد كبيرة من الناس للعمل في بناء هذه الاهرامات ، ومالاقوه من العناء والتعب وصنوف التعذيب ، كما يستنتج ما تنطوي عليه فكرة الفراعنة الخاطئة عن الموت والبعث ، بل يتزود المؤمن الوعي بعد تلك المعارف بالعبرة النافعة وهو يشاهد خرائبها فيتسائل في نفسه، أين ساكنيها وما مصيرهم؟!.

ثالثا : النظر في حكمة التشريع : والغرض من ذلك ترسيخ قناعة المسلم بتشريعه وصوابه وبيان صلاحيته للتطبيق في كلِّ زمان ومكان ، من أجل أن تنقشع عن فكر المسلم غيوم الشبهات التي يثيرها أعداء العقيدة من حوله وإذا كانت بعض أحكام الدين الإسلامي توقيفية ، تدعو المسلم نحو التسليم بها ، ولا يجدي معها إعمال العقل ، كأمور العبادة

، إلاّ أن هناك تشريعات في الإسلام ذات أبعاد اجتماعية كشف القرآن لنا عن الحكمة الكامنة من وراء تشريعها لمصالح تعود إلى الفرد والمجتمع ، من قبيل قوله تعالى:(ولكُم في القِصَاصِ حياةٌ يأُولي الألبابِ لعلَّكُم تتَّقون) .

رابعا : توجيه العقل إلى النظر ، والتثبت في الرأي ، وحرية التفكير والقرار :

قال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم:« لا تكونوا إمّعة ، تقولون : إنْ أحسنَ الناس أحسنّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسنَ الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن لا تظلموا » قال تعالى : (أفلا يَتَدبَّرون القُرآنَ أم على قُلوبٍ أقفالُها) نداء بليغ إلى النظر وإعمال الفكر ، من خلال الاستنكار على السطحيين والمغفّلين المعاندين ، أولاً ، ثم من خلال التقريع العنيف لهذه الأصناف من الناس ثانياً.

ولا قيمة لدعوى لا تستند إلى برهان صحيح ، وإذا كان الزمخشري قد رأى أنَّ هذا النصّ هو أهدمُ شيء لمذهب المقلّدين فإنَّ فيه ما يفيد أكثر من ذلك ، إذ قد ينصرف لفظ المقلّدين إلى من غلب عليهم التقليد ، لكنَّ هذا النصَّ حاكم على دائرة الفكر البشري بكامل أجزائها ونواحيها ، فقد يقع المفكرون وكثيراً ما وقعوا فى أغلاط كبيرة نتيجة اعتمادهم بعض الكليات العامّة التي استقر في أذهانهم أنها بديهيات لا تحتاج إلى برهان ، بينما لم تكن هذه الكليات في حقيقة أمرها إلاّ تصوّرات صادرة عن أوهام أو قصور في العقل وهذا كثير في أغلاط أهل الجدل ، بل قد يقع أحياناً حتى في العلوم التطبيقية ، حين يُنظر إلى بعض الاستنتاجات على أنّها قوانين علمية ثابتة ، في حين أنّها استنتاجات قائمة على ملاحظات ناقصة ، وهكذا نلمس مدى أكبر لدعوة القرآن الكريم إلى تقديم البرهان التام على كلِّ مقولة ودعوى سواء كانت في العلوم العقلية ، أو في العلوم التطبيقية

ولا شك أنّ مساحة النظر والتدبّر واسعة ، سعة المعارف والمواقف ، وسنشير هنا إلى أثرين مهمّين :أحدهما عام عموم النص القرآني المذكور ، وإن استهدف في ظاهره العقل المقلّد والمتابع ، شأن طوائف الناس الذين يغلب عليهم التقليد في عقائدهم ومواقفهم.

والأثر الثاني ، مما جاء في لون خاص من ألوان المتابعة والتقليد ، وهو التقليد الأعمى لأشخاص استقرَّ لهم في النفوس موقع كبير ، تلاشى إلى جنبه دور العقل وأثره في النظر والتفكير والنقد ، وكأن هؤلاء الاشخاص قد أصبحوا في أنفسهم ميزاناً للحقّ ، فلا يصحّ أن توزن أقوالهم وأعمالهم أو تعرض للنقد والنظر ، هذا النوع من التقليد الذي كان ولا يزال مصدرا للكثير من الأخطار في العقائد والمواقف

خامساً : توجيه الإنسان إلى كسب العلم والمعرفة :من المسلّمات التي لا تحتمل جدلاً ، أنّ الدين الإسلامي يحث بقوة على كسب العلم والمعرفة ،

ومن يتأمل سور القرآن الكريم يجد ذلك يتكرر كثيراً تصريحاً أو تلميحاً :

(.. قُل هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعلمُونَ إنَّما يَتَذكَرُ أُولُوا الألبابِ) (.. يَرفَعِ اللهّ الَّذينَ ءامنُوا مِنكُم والَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجاتٍ واللهّ بِما تَعمَلُونَ خَبيرٌ) ولأهمية العلم فقد أخذ اللهّ تعالى الميثاق على أهل الكتاب من أجل تبيينه ، وعدم احتكاره : (وإذ أخَذَ اللهّ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لتُبيُّننَّهُ للنَّاس ولا تكتُمونهُ ..) وبعد آيات القرآن تأتي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الأطهار عليهمالسلام حيثُ تصبُّ في هذا الاتجاه ، وتقرُّ بأنّ العلم يشكّل عماد الدين وفيه حياة الإسلام ، وتحثُّ على طلبه ، وتكشف عن فضيلته ، فمداد العلماء في نظر الإسلام أفضل من دماء الشهداء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : طلبُ العلم أفضل عند اللهّ من الصلاة والصيام والحجّ والجهاد في سبيل اللهّ .

يقول : جِب في كتابه : الاتجاهات الحديثة في الإسلام : أعتقد أنّه من المتفق عليه أنّ الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون ، قد ساعدت على تقدّم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنّه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى

أوروبا في العصور الوسطى .

وللإنسان أن يقف مبهورا أمام عظمة العقيدة الإسلامية ، التي أحدثت ذلك الانقلاب الحضاري في نفوس أبناء الصحراء حتى صاروا طليعة العالم كلّه في العلم والمعرفة وسائر جوانب الحضارة والمدنية.

العلم والإيمان :

وتجدر الاشارة إلى أنّ العقيدة تربط العلم بالايمان ، فالعلم بدون إيمان كغرس بلا ثمر ، العلم يدعو إلى الايمان ، والايمان بدوره يحث على العلم ، والفصل بينهما يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباها فلقد أثبتت التجارب التاريخية ، أنّ فصل العلم عن الايمان قد أدى إلى أضرار لا يمكن تعويضها ، يجب معرفة الايمان على ضوء العلم ، والايمان يبتعد عن الخرافات في نور العلم ، وبفصل العلم عن الايمان يتحول الايمان الى الجمود والتعصب الأعمى والدوران بشدة حول نفسه ، وعدم الوصول إلى مكان ، والمكان الفارغ من العلم والمعرفة ينقلب فيه المؤمنون الجهلة إلى آلة بيد كبار المنافقين ، الذين رأينا ونرى نماذج منهم في خوارج صدر الإسلام ، والأدوار التي تلت بصور مختلفة والعلم بلا إيمان سراج في منتصف الليل بيد لص لسرقة أفضل البضائع ،لهذا فإنّ الإنسان العالم بلا إيمان اليوم ، لا يختلف عن الجاهل بلا إيمان في الأمس أقل الاختلاف ،

من حيث طبيعة الأساليب والأفعال وماهيتها وعليه فالعلم بحاجة إلى الايمان كحاجة الجسد إلى روح ، لأنّ العلم وحده عاجز بطبيعته عن بناء الإنسان الكامل ، فالتربية العلمية الخالصة تبني نصف إنسان لا إنسانا كاملاً ، وتصنع إنساناً قد يكون قوياً وقادراً لكنّه ليس فاضلاً بالضرورة ، هي تصنع إنساناً ذا بعد واحد ، هو البعد المادي ، أما الإيمان فإنّه يصوغ الشخصية في مختلف الأبعاد.

ولقد بلغ اغترار الأوروبيين بالعلم حداً وصل إلى حد التأليه والعبادة ، وإن لم يقيموا شعائره في كنائسهم ، ولمّا كان الدين يرتكز على قواعد غيبية ، خارج نطاق المادة ، اعتبروه ظاهرة غير علمية وعلى هذا الأساس ظهر بينهم داء الفصل بين الدين والعلم ، وهو توجّه غريب عن منهج الإسلام ، وليس أدل على هذا التماسك بين الايمان والعلم من هذه الدعوة الملحّة ، في الدين إلى طلب العلم والاستزادة منه في كل مراحل العمر ، وفي كلِّ الحالات ومن هذه القيمة الكبيرة التي يعطيها الدين للعلم والعلماء وإذا كان هناك صراع بين العلم والدين في بعض فترات التاريخ ،

كما حدث في تاريخ المسيحية ، فذلك لا علاقة له بالدين ، وإنّما هو لون من ألوان الانحراف عن الدين ، ولا يكون الدين مسئولاً عما يرتكب الناس فى حقه من انحراف ومما يؤسف له ، أنّ بعض الأصوات ترتفع هنا وهناك تنادي بالفصل بين العلم والدين ، بدعوى أنّ أوروبا تنكّرت للدين فتقدمت علمياً وحضارياً ، ونحن تمسكنا بالدين فتخلّفنا ، إنّ عقول هؤلاء إما قاصرة عن إدراك وظيفة العلم الذي هو أداة لكشف الحقائق الموضوعية ، وتفسير الواقع تفسيراً محايداً بأعلى درجة من الدقة والعمق أو أنّ هذه العقول جاهلة بمنهج الإسلام الذي ما انفك يدعو إلى العلم ، وأغلب الظن أنها عقول مأجورة تُردد مزاعم الأعداء والحاقدين على الإسلام ، وتغضّ الطرف عن العواقب الروحية الجسيمة ، التي حدثت جرّاء فصل العلم عن الدين وأوضح الأمثلة على ذلك ، هذا العصر الذي نعيش فيه ، العصر الذي وصل فيه التقدم العلمي والمادي ذروته ،

ووصلت الإنسانية إلى حضيضها من التقاتل الوحشي والتخاصم الذي يقطع أواصر الإنسانية ، ويجعلها تعيش في رعب دائم وخوف من الدمار ، كما وصلت إلى الحضيض في تصورها لأهداف الحياة وغاية وجود الإنسان وحصرها في اللّذة والمتاع ، وانحطاطها تبعاً لهذا التصور إلى أحطّ دركات الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية التي يعف عنها الحيوان وعليه فإنّ العقيدة الإسلامية لها فضل كبير على مناهج التربية التي تسعى لبناء الإنسان ، لتأكيدها على دور الايمان والعلم معاً في بناء شخصية الإنسان ، وبفصل العلم عن الايمان يغدو الإنسان كإبرة مغناطيس تتأرجح بين الشمال والجنوب ، وعليه فهو بحاجةٍ ماسة إلى قوة تتمكن من إيجاد ثورة في ضميره ، وتمنحه اتجاهاً أخلاقياً يحقق إنسانيته ، وهذا عمل لا يتمكن منه العلم بمعزل عن الدين.

البناء الاجتماعي والتربوي

قامت العقيدة بتغيير كبير على صعيد البناء الاجتماعي والتربوي ، يمكن الإشارة إليه من خلال النقاط التالية :

أولاً : إثارة الشعور الاجتماعي :فلقد كان إنسان ما قبل الإسلام يتمحور في سلوكه الاجتماعي حول ذاته ، وينطلق في تعامله مع الآخرين من منظار مصالحه وأهوائه ، وينساق بعيداً مع أنانيته ولقد هبط في القاع الاجتماعي إلى درجة وأد أبنائه ، خشية الفقر والمجاعة ، الأمر الذي استدعى التدخل الإلهي ، لإنقاذ النفوس البريئة من هذه العادة القبيحة ، قال تعالى : (ولا تَقتُلُوا أولادَكُم خَشية إملاقٍ) على أنّ أشد ما يسترعي الانتباه ، أنّ ذلك الإنسان الجاهلي ، الدائر حول ذاته ومنافعها ، قد غدا بتفاعله مع إكسير العقيدة ، يضحي بالنفس والنفيس في سبيل دينه ومجتمعه ، وبلغت آفاق التحول في نفسه إلى المستوى الذي يُؤثِر فيه مصالح أبناء جنسه على منافع نفسه.

ولا يخفيّ على أحد مستوى الإيثار الذي أبداه الأنصار مع المهاجرين ، إذ شاطروهم في كلِّ ما يملكون ، حتى في بيوتهم وأمتعتهم ، ولم ينحصر هذا المستوى من الايثار فى أفراد ، بل شكّل ظاهرة اجتماعية عامّة لم يشهد لها تاريخ الإنسانية نظيراً وفي هذه الظاهرة نزل قرآن كريم يبارك هذه الروح ، ويخلّد ذكر مجتمع تحلّى بها ، كنموذج من نماذج التلاحم الاجتماعي والمؤاخاة قال تعالى : (لِلفُقَرَآءِ المُهَاجِرينَ الَّذِينَ أُخرِجوا مِن دِيارِهِم وأموَالِهِم يَبتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللهّ وَرِضواناً وَيَنصُرُونَ اللهّ وَرَسُولَهُ أُولئكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيمانَ مِن قَبلِهِم يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إليهم وَلا يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلى أنفُسِهِم ولَو كانَ بِهِم خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولئكَ هُمُ المُفلِحُونَ) وينقض الإسلام أسساً في البناء الاجتماعي الجاهلي قوامها تعزيز التقسيم الطبقي والقَبَلي للمجتمع ، الذي كان يتشكل من طبقتين أساسيتين ؛ طبقة الأشراف ، والعبيد ، ولا بدَّ لأبناء طبقة الأشراف أن يبقوا هكذا

تجتمع لديهم الثروات ويحتكرون الشأن والوجاهة ، ولابدَّ لأبناء طبقة العبيد أن يبقوا هكذا يدورون في فلك الأسياد فقوّض الإسلام هذه الأسس وأقام محلّها أسساً جديدة تساوي بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة قال تعالى:(يا أيُّها الناسُ إنّا خَلقنَاكُم مِن ذكَرٍ وأُنثى وجَعَلنَاكُم شعُوباً وقبَائلَ لِتَعارفُوا إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللهّ أتقاكُم) ، فتحرر أبناء طبقة العبيد ومارسوا حقهم في الحياة ، وارتفع عمار وسلمان وبلال عالياً فوق طبقة أشراف قريش التي ما زالت تتخبط في ضلالات الجاهلية ،كالوليد بن المغيرة وهشام بن الحكم وأبي سفيان وأمثالهم وحتى الأموال لم تعد حكرا على الأغنياء ليزدادوا ثراءً ، قال تعالى : (مَّآ أفَآءَ اللهّ عَلى رَسُولِهِ مِن أهلِ القُرى فللّه وَلِلرَّسُولِ وَلِذي القُربى وَاليتامى والمساكِينِ وَابنِ السَّبِيلِ كَي لا يَكُونَ دُولَةً بَينَ الأغنِيآءِ مِنكُم وَمَآ آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نهَاكُم عَنهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهّ إنَّ اللهّ شَدِيدُ العِقَابِ) .

أساليب تنمية الشعور الاجتماعي :

لقد نمّت العقيدة الشعور الاجتماعي لدى الفرد بوسائل عديدة ، منها :

أ ـ إيقاظ الشعور بالمسئولية تجاه الآخرين من خلال تأكيد القرآن الكريم على مسئولية الإنسان تجاه نفسه وغيره ، كقوله تعالى: (يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُم وَأَهلِيكُم نَارا ..) .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون

وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا : « ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على النّاس راع ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرَّجُلُ راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأةُ راعية على بيتِ بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم .

وكنظرة مقارنة ، نجد أنّ المذاهب الاجتماعية الوضعية ، بُنيت على أساس المسئولية الفردية في هذه الحياة فحسب ، وتأييدها بمؤيدات قانونية كحجز الحرية ، أو التعذيب ، أو التغريم المالي أو العزل عن الوظيفة ، أو المكافأة بالمال أو الترقية في الوظيفة وما إلى ذلك ، وبمؤيدات اجتماعية كالثقة أو حجبها والتقدير أو التحقير أما المذهب الإسلامي ، فلا يقتصر على مسئولية الفرد أمام المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه في هذه الحياة ، إنّما يُنمّي في الفرد المسئولية العظمى أمام الخالق العظيم في حياة أُخرى ، وحينئذ يدفعه إلى التحديد الذاتي أو الطوعي لرغباته ، والشعور الاجتماعي نحو غيره ، بغض النظر عن القانون أو العرف أو الضمير ، لأنّ الضمير قد يعجز عن مواجهة الغرائز عند فقدان العقيدة الدينية ، كما أنّه ليس من الميسور توفير الرقابة الاجتماعية في كلِّ مكان ، وبصورة دائمة ، وعليه فإنّ هذه الرقابة الداخلية لا توجد في غير العقيدة الدينية.

ب ـ تنمية روح التضحية والايثار :لقد حثَّ القرآن الكريم على الايثار ، وأشاد بروح التضحية حيث لمّا بات علي بن أبي طالب على فراش الرسول صلى اللهعليه وآله وسلم يفديه بنفسه ، فيؤثره بالحياة ، أشاد اللهّ تعالى بموقف التضحية الفريد ، فأنزل:« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِي نَفسهُ ابتغاءَ مرضاتِ اللهّ واللهّ رؤوفٌ بالعبادِ » يقول الفخر الرازي : نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ،بات على فراش رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم ليلة خروجه إلى الغار ، ويروى أنّه لمّا نام على فراشه قام جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادي : بخٍ بخٍ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي اللهّ بك الملائكة ، ونزلت الآية .

وقدّمت السيرة المطهّرة القدوة الحسنة في هذا المقام ، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شاء لشبع ، ولكنه كان يؤثرُ على نفسه .

ومن الشواهد التاريخية ، التي تدل على ذلك التحوّل الاجتماعي الكبير الذي أحدثته العقيدة ، في فترة وجيزة ، أنّه أُهدي لرجل من أصحاب رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : إنّ أخي فلاناً أحوج إلى هذا منّا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة بيوت حتى رجعت إلى الأول .

هكذا تربي العقيدة الإنسان المسلم على الشعور الاجتماعي ، شعور الفرد نحو غيره ، فيتجاوز دائرة الذات إلى دائرة أرحب هي دائرة العائلة ، ثم تتسع اهتماماته لتشمل دائرة الجوار ، ثم أبناء بلدته ، وبعدها أبناء أمته ، وفي نهاية المطاف تتسع لدائرة أكبر فتشمل الإنسانية جمعاء.

ج ـ تنمية الشعور الجماعي :وفي هذا الصدد ، نجد فيض من الأحاديث التي تحثُّ الفرد على الانضمام للجماعة والانسجام معها ، والانصباب في قالبها ، بعد أن ثبت عند العقلاء أنّ في الاجتماع قوة ومنعة ، وبعد أن أكد النقل على أنّ اللهّ تعالى قد جعل فيه الخير والبركة ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يدُ اللهّ مع الجماعة ، والشيطان مع من خالف الجماعة يركُضُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « من خرج من الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » وفي كلِّ ذلك دليل قاطع على أنّ الإسلام دين اجتماعي ، يحاول ربط الفرد بالجماعة ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهنا لا بدَّ من التنبيه على أنّ الحكام الظلمة ، قد استغلوا مفهوم الجماعة أبشع استغلال لتثبيت سلطانهم والمحافظة على عروشهم ، فاخذوا يصبّون جام غضبهم على كلِّ من يجهر بكلمة حق ويقوم بمعارضة تسلطهم اللامشروع ، ويفضح أساليبهم غير الإسلامية ،

وكان الأمويون ـ الذين اتّخذوا مال اللهّ دولاً وعباده خولاً يقتلون كل من خرج عليهم بحجة أنّه مفارق للجماعة ، وكذلك سار العباسيون على ذلك النهج ، بل وتفوّقوا على الأمويين في ابتكار أساليب القتل والتعذيب ومن يتصفّح كتب التاريخ ، يجد أنّه ينقل صوراً بشعة لأساليب التنكيل والقتل التي مارسها الأمويون والعباسيون ضد العلويين بحجة واهية هي الخروج عن الاجماع والجماعة على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوضح بجلاء مفهوم الجماعة الذي لا يعني الكثرة ، كما يتصوره السطحيون وكما يُحرِّفه السلطويون ، بل يعني جماعة أهل الحقّ وإن قلّوا قال صلى الله عليه وسلم : من فارق جماعة المسلمين فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه قيل : يا رسول اللهّ ما جماعة المسلمين؟ قال صلى الله عليه وسلم : جماعة أهل الحق وإن قلّوا » وعودة إلى أصل المطلب ، فقد تبيّن لنا أنّ العقيدة تدعو الإنسان المسلم إلى الانضمام إلى الجماعة

، وهنا تساؤل يفرض نفسه ، وهو وجود أحاديث كثيرة في مصادرنا ، تدعو المسلم إلى إيثار العزلة ، وبالتالي الابتعاد عن الناس ، يُجيب مؤلف جامع السعادات ،عن ذلك بقوله : (نظر الأولون إلى إطلاق ما ورد في مدح العزلة ، وإلى فوائدها كقول النبي صلى اللهعليه وسلم : إنّ اللهّ يحب العبد التقي الخفي ، وقوله صلى الله عليه وسلم : أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللهّ ، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب .

ويمكن حمل العزلة على تجنّب مخالطة الأشرار ، فقد ورد في وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي ذر الغفاري: يا أبا ذر ، الجليس الصالح خيرٌ من الوحدة ، والوحدة خيرٌ من جليس السوء أما الاختلاط بالأخيار ، فهو أمر مرغوب فيه ، والإسلام يحثُ عليه ، وعلى العموم فهناك حالات استثنائية تستدعي العزلة عن الناس ، أما القاعدة العامة في الإسلام ، فتؤكد على مخالطة الناس ، والصبر على أذاهم.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم والإسلام يبغض العزلة التامة عن الناس مهما كانت مبرراتها فلا رهبانية في الإسلام كما هو معروف ، ومن شواهد النقل على ذلك أن رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم فقد رجلاً ، فسأل عنه فجاء ، فقال : يا رسول اللهّ إنّي أردتُ أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه فأتعبّد ، فقال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم : لصبر أحدكم ساعةٍ على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خالياً أربعين سنة .

ثانيا : تغيير نظم الروابط الاجتماعية

كان المجتمع الجاهلي يعتبر رابطة الدم والرحم أساس الروابط الاجتماعية ، فيضع مبدأ القرابة فوق مبادئ الحق والعدالة في حال التعارض بينهما ، والقرآن الكريم قد ذمَّ هذه الحمَّية الجاهلية صراحة : (إذ جعلَ الَّذِينَ كَفرُوا في قُلُوبِهم الحَمِيَّة حِميَّة الجَاهِلِيَّةِ) وعملت العقيدة على إزالة غيوم العصبية عن القلوب ، ولم تقرَّ التفاضل بين الناس القائم على القرابة والقومية أو اللون والمال والجنس ، وبدلاً من ذلك أقامت روابط جديدة على أسس معنوية هي التقوى والفضيلة.

وعليه فالعقيدة تنبذ كل أشكال العصبية ، إذ لا يمكن التوفيق بين الإيمان والتعصّب قال صلىاللهعليهوسلم : ليس منّا من دعا إلى عصبية ، وليس منّا من قاتل على عصبيّة ، وليس منّا من مات على عصبيّة وهكذا نجد أنّ العقيدة قد عملت على قشع غيوم العصبية السوداء من القلوب ، وقامت بتشكيل هوية اجتماعية جديدة للناس تقوم على الإيمان باللهّ ورسوله ، وإشاعة مشاعر الحب

والرّحمة بدلاً من مشاعر التعصّب والكراهية ، فالعصبية التي تعني : مناصرة المرء قومه ، أو أسرته ، أو وطنه ، فيما يخالف الشرع ، وينافي الحق والعدل وهي : من أخطر النزعات وأفتكها في تسيّب المسلمين وتفريق شملهم، وإضعاف طاقاتهم الروحية والمادية وقد حاربها الإسلام ، وحذّر المسلمين من شرورها ومن أبرز مظاهر التغيير الاجتماعي ، الذي صنعته العقيدة أنّ هناك أفراداً كانوا في أسفل السلّم الاجتماعي في فترة ما قبل الإسلام ، فإذا هم بعد إشراق شمس الإسلام ، يتصدرون قمة الهرم الاجتماعي ، فبلال الحبشي يصبح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلمان الفارسي هو رجل من بلاد فارس ، تنقّل من رقّ إلى رقّ ، أصبح في عصر الإسلام صحابياً جليلاً ، وحاكماً عاماً على بلاد كبيرة ، وفوق كل ذلك غدا من أهل البيت عليهم السلام وكان زيد بن حارثة وابنه أُسامة ممن ينبغي وفق التقسيم الجاهلي أن يكونا في طبقة العبيد ، فإذا بهما يقودان جيوش المسلمين في اثنتين من أكبر الحملات الإسلامية عدّة وعدداً ولم يكن من اليسير أن يتم هذا التحوّل الكبير في أفكار الناس وعلاقاتهم ، في هذه الفترة القصيرة من عمر الرسالة ، لولا التغيير الكبير الذي اضطلعت به العقيدة الإسلامية.

ثالثا : الحث على التعاون والتعارف:

نقلت العقيدة أفراد المجتمع من حالة التنافس والصراع إلى حالة التعارف والتعاون والقرآن مصدر العقيدة الأول ، يحث الناس على الاجتماع والتعارف ، يقول تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِن ذكرٍ وأُنثى وجَعلنكُم شُعوبا وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمَكُم عند اللهّ أتقاكُم ...) .

كما حثَّ الناس على التعاون : (وتعاونُوا على البرِّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثمِ والعُدوانِ) وقد أثبتت تجارب البشرية أنّ في التعاون قوة ، وأنّه يؤدي إلى التقدم ، وكان المجتمع الجاهلي متخلفاً ، يعيش حالة الصراع بدافع العصبية القبلية ، أو طغيان الأهواء والمصالح الشخصية ، أو بسبب احتكار البعض لمصادر الكلأ والماء ، فانتقل ذلك المجتمع بفضل الإسلام إلى مدار جديد بعد أن تكرّست فيه قيم التعاون والتكافل الاجتماعي وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان مصدراً لحضارة ، وباعثاً لنهضة نجد شواهد عديدة على حبه للتعاون والتكافل وحثه المتواصل عليهما ، منها -:

أنّه أمر أصحابه بذبح شاة في سفر ، فقال رجل من القوم : عليَّ ذبحها ، وقال الآخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ قطعها ، وقال آخر : عليَّ طبخها ، فقال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم :عليَّ جمع الحطب فقالوا : يا رسول اللهّ ، نحن نكفيك قال صلى الله عليه وسلم : عرفتُ أنّكم تكفوني ، ولكن اللهّ عزَّ وجلَّ يكره من عبده إذا كان مع أصحابه أن ينفرد من بينهم وقام يلقط الحطب لهم .

وكما كرّه الرسول صلى الله عليه وسلم في الموقف السابق أن ينفرد الإنسان عن سربه الاجتماعي ، ويكتفي بموقف المتفرج لا يقوم بشيء من المشاركة معهم ، كذلك كرّه أن يصبح الإنسان كلاً على جماعته ، يعتمد على غيره في عيشه وشئونه ، بدون مبرر معقول : ذُكر عند النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل قالوا : يا رسول اللهّ ، خرج معنا حاجًّا ، فإذا نزلنا لم يزل يهلّل اللهّ حتّى نرتحل ، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر اللهّ حتى ننزل فقال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم : « فمن كان يكفيه علف دابته ، ويصنع طعامه؟ قالوا : كلنا ، قال صلى الله عليه وسلم : كلكم خير منه.

رابعا : تغيير العادات والتقاليد الجاهلية

كان للعقيدة أثر بالغ في تغيير الكثير من العادات والتقاليد ، التي تُمتهن فيها كرامة الإنسان ، وينتج عنها العنت والمشقة ، وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الأطهار بدور حضاري هام ، في هذا المقام ، قال صلى الله عليه وسلم :لا تقوموا كما يقوم الأعاجم بعضهم لبعض ، ولا بأس بأن يتخلل عن مكانه وسعى صلى الله عليه وسلم لإشاعة وترسيخ عادات تربوية جديدة ، روي عن أبي عبد اللهّ عليه السلام ، قال : كان رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل وروي أنّ رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم قال إذا أتى أحدكم مجلساً فليجلس حيثُ انتهى مجلسه فكان صلى الله عليه وسلم يعمل على تغيير العادات في مختلف مجالات الحياة ، في القيام والجلوس ، وفي المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك.

البناء النفسي

إنَّ لكلِّ عقيدة أثراً في نفس صاحبها ، يدفعه إلى نوع من الأعمال والتصرفات ، ولقد كانت لعقيدة الإيمان باللهّ في المسلمين آثار في النفس عميقة ، كان لها نتائجها العملية في الحياة العامة ، يمكن الإشارة إليها إجمالاً في النقاط التالية : ـ

أولاً : طمأنينة النفس : إنّ الإنسان المتدين يجد في العقيدة اطمئناناً رغم عواصف الأحداث من حوله ، فهي تدفع عنه القلق والتوتر ، وتخلق له أجواء نفسية مفعمة بالطمئنينة والأمل ، حتى ولو كان يعيش في بيئة غير مستقرة أو خطرة وتاريخ الإسلام يحدثنا بما لا يحصى من ذلك ، فعلى الرغم من أن المسلمين الأوائل كانوا يعيشون ظروفاً صعبة ، حيثُ الحروب المتوالية التي أثارتها قريش وحلفاؤها ، وما صاحبها من مقاطعة اقتصادية وعزلة اجتماعية وضغوط نفسية ، إلاّ أنّهم كانوا يتمتعون بمعنويات عالية ، ويندفعون للقتال بنفس مطمئنة إلى ثواب اللهّ ورحمته عن أنس أنّ رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم

قال يوم بدر : قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول اللهّ ، جنّة عرضها السّماوات والأرض؟! قال : نعم ، قال : بخ بخ! لا واللهّ يا رسول اللهّ ، لابدَّ أن أكون من أهلها ، قال : فإنّك من أهلها ، فأخرج تميرات من قرنه فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئن حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها حياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثمّ قاتل حتى قتل فالبيئة التي يتواجد فيها هذا المجاهد كانت خطرة ، فهو يعيش أجواء حرب بدر ، ولكن نفسه كانت سعيدة ، حيثُ يأمل العيش في جنّة عرضها السماوات والأرض فالمسلم بفضل عقيدة الإيمان باللهّ تعالى يشعر بالرضا والاطمئنان بما يقع في محيطه من أحداث ، ويوطّن نفسه على قضاء اللهّ وقدره ، فالمصيبة التي تصيبه في حاضره ، قد تتحول إلى بَرَكة ، والقرآن الكريم يُنمّي هذا الاحساس في نفس المؤمن قال تعالى:(وعَسى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكُم وعسى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكُم واللهّ يعلمُ وأنتم لا تعلمونَ) .

<u>أساليب العقيدة في مواجهة المصائب :</u>

تخفف العقيدة في نفوس معتنقيها من الضغوط والأزمات النفسية التي يتعرضون لها ، فتصبح ضعيفة الأثر والأهمية ، ضمن أساليب عديدة ، منها :

أ ـ بيان طبيعة الحياة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان : وهذه المعرفة سوف تظهر بصماتها واضحة في وعيه وسلوكه ، فالعقيدة من خلال مصادرها المعرفية تبين طبيعة الدنيا وتدعوا إلى الزهد فيها يقول الشيخ الديلمي : ما عبر أحد عن الدنيا كما عبر أمير المؤمنين عليه‌السلام بقوله :دارٌ بالبلاءِ محفوفة ، وبالغدر معروفة ، لا تدوم أحوالها ، ولا تسلم نزالها ، أحوالها مختلفة ، وتارات متصرفة ، والعيش فيها مذموم ، والأمان فيها معدوم ، إنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة ، ترميهم بسهامها ، وتفنيهم بحمامها » وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الادراك العميق للدنيا إلى حذر شديد منها ، ويكفينا الاستدلال على ذلك : سأل معاوية ضرار بن ضمرة الشيباني عن أمير المؤمنين علي ،

فقال : أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وهو قائم في محرابه ، قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا! يا دنيا!! إليك عني ، أبيَّ تعرِّضت؟! أم إليَّ تشوِّقت؟! لا حان حينك ، هيهات غرّي غيري ، لا حاجة لي فيك ، قد طلّقتك ثلاثاً ، لا رجعة فيها ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير ، آه من قلّة الزّاد ، وطول الطريق ، وبعد السفر ، وعظيم المورد ومن جملة تلك الشواهد ، نجد أنّ العقيدة تكشف طبيعة الدنيا وعاقبة من ينخدع بها أو يركن اليها ، وتبين قصور رؤية من ينشد الراحة التامة فيها .

ب ـ إنّ المصائب تستتبع أجراً وثواباً : الأمر الذي يخفف من وقع المصائب على الإنسان ، فيواجهها بقلب صامد ، ونفس مطمئنة إلى ثواب اللهّ ورحمته ، فلا تترك في نفسه أثراً أكثر مما تتركه فقاعة على سطح الماء.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المصائب مفاتيح الأجر وكتب رجلٌ إلى أبي جعفر عليهالسلام يشكو إليه مصابه بولده ، فكتب إليه : أما علمت أنّ اللهّ يختار من مال المؤمن ومن ولده ونفسه ليأجره على ذلك .

جـ ـ لفت نظر المسلم إلى المصيبة العظمى : وهي مصيبته في دينه ، مما يهوّن ويصغّر في نفسه المصائب الدنيوية الصغيرة ، وهي حالة امتصاص بارعة للضغوط النفسية تقوم بها العقيدة.

ثانيا : تحرير النفس من المخاوف : لاشكَّ، أنّ الخوف يبدد نشاط الفرد ، ويُشل طاقته الفكرية والجسمية ، وكان الإنسانُ الجاهلي في خوف دائم من أخيه الإنسان ودسائسه ، ومن الطبيعة المحيطة به وكوارثها ، ومن الموت الذي لا سبيل له إلى دفعه ، ومن الفقر والجدب ، ومن المرض وما يرافقه من آلام ، وتخفف العقيدة من وطأة الاحساس بتلك المخاوف التي تشلُّ طاقة الإنسان عن الحركة والانتاج ، وتجعله غرضاً للهموم والهواجس.

الموت : ينبّه القرآن الكريم إلى حقيقة أزلية ، على الإنسان أن يوطّن نفسه عليها ، وهي : (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ) وعليه فلا بدَّ مما ليس منه بد ، والموت لا بدَّ أن يدرك الحي يوما ما ، كما أدرك مَنْ قبله ، وهو شيء لا عاصم منه قال تعالى :(أينما تكُونوا يُدرككُم الموتُ ولو كُنتُم في بُروجٍ مشيَّدة)وقال : (قُلْ لَّن ينفعكُم الفرارُ إن فررتُم من الموت) فالقرآن يؤكد أنّ الموت لا بدَّ منه ، ثم أنّه أمرٌ منوط بإذن الله تعالى وليس بيد غيره ، وهذه حقيقة لها انعكاسات إيحائية على نفس الإنسان ، بأنَّ أي قوة أرضية أو سماوية لا تستطيع مهما أُوتيت من قوة أن تسلب الحياة عن الإنسان قال تعالى : (ما كان لنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذن الله كتابا مُؤجَّلاً) ولقد بيّن القرآن الكريم زيفَ مزاعم اليهود الذين كانوا مع حرصهم الشديد على الحياة يتصورون أنهم أولياء الله دون غيرهم ، فكشف زيف مزاعمهم بهذا التحدّي الذي يخاطب دفائن النفوس ، ذلك أنَّ المؤمن بالله حقاً لا يخشى الموت إذا حلَّ بساحته ،

فالموت هو انتقال من دار فانية إلى دار باقية واليهود بما يمتازون به من نزعة مادية طاغية ، يخشون الموت ويتشبثون بالحياة ، ومن هنا واجههم القرآن الكريم بهذا التحدي البليغ قال تعالى : (قُل يأيُّها الَّذين هادُوآ إن زعمتم أنُّكم أولياءُ للهّ من دُونِ النَّاس فتَمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين * ولا يتمنَّونه أبدا بما قدَّمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين) .

المثير في الأمر أنّ العقيدة في الوقت الذي تخفف من خوف الإنسان من الموت ، تصوّر الموت للمؤمن كأنه تحفة! ينبغي الإقدام عليه ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تحفة المؤمن الموت » وإنّما قال هذا لأنَّ الدنيا سجن المؤمن ، إذ لا يزال فيها في عناء من رياضة نفسه ومقاساة شهواته ومدافعة الشيطان ، فالموت إطلاق له من العذاب ، والإطلاق تحفة في حقّه لما يصل إليه من النعيم الدائم هكذا تقدم العقيدة إشعاعا من الأمن يخفف من وطأة الموت ، فإنّه للمؤمن تحفة وراحة قال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم : شيئان يكرهما ابن آدم : يكره الموت فالموت راحة للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب .

الرّزق مضمون لطالبه : هناك خوف ينتاب الإنسان ، وينغّص عليه حياته ، وهو الخوف من الفقر ، لكن العقيدة تبدد هذا الخوف من خلال التأكيد على حقيقة واضحة كالشمس في رابعة النهار ، وهي أنّ مقادير الرزق بيد اللهّ تعالى ، وقد ضمنها لعباده ،وعليه فلا مبرّر لهذه المخاوف ، ومن يقرأ القرآن يجد آيات كثيرة ، تحثّ على إزالة أسباب الخوف من الفقر التي أدّت بالجاهلي إلى قتل أبنائه قال تعالى :(إنَّ اللهّ هوَ الرّزَّاقُ ذو القوِّة المتينُ) .

ثالثا : معرفة النفس

من معطيات العقيدة ، أنها تدفع المسلم إلى معرفة نفسه ، فلا يمكن السمو بالنفس دون معرفة طبيعتها .

دور العقيدة في تعريف الإنسان بنفسه :

لا شكّ أنّ العقيدة قامت بدور كبير في الكشف عن طبيعة النفس ، وشخّصت بدّقة متناهية أمراضها والآثار الناجمة عنها فالقرآن الكريم يقرُّ صراحة بأنّ النفس أمارة بالسوء :(وما أُبرِّئ نفسي إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رحمَ ربي) كما يقرُّ بأنّ النفس شحيحة قال تعالى : (وأُحضرتِ الأنفسُ الشُّحّ)، وقال :(من يُوقَ شُحَّ نفسهِ فأُولئكَ هُمُ المُفلحُون) وهناك طائفة من الأحاديث تسلط الضوء على طبيعة النفس ، وتقدّم الرؤية العلاجية لأمراضها .

رابعا : السيطرة على النفس

منهج العقيدة في تربية النَّفس ، أنّها تدعو إلى عدم كبت رغباتها لأنّ الكبت يقتُل حيويتها ، ويُبدد طاقتها ، فلا تعمل ولا تنتج ، وفي الوقت ذاته لا تشجع على إطلاق رغباتها بلا ضوابط ، بل تحثُّ على اتّباع سياسة حكيمة معها وعملية السيطرة على النفس تتحقق من خلال ضبط رغباتها وتوجيه نزواتها نحو الاعتدال ، وتتحقق أيضاً من خلال محاسبتها والعقيدة لا تحبذ اتّباع الوسائل الملتوية من أجل السيطرة على النفس ، فعن طلحة قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء ، وكان يقول لنفسه : ذوقي ، وعذاب جهنّم أشد حرّا ، أجيفة باللّيل بطّالة بالنّهار؟!.

قال : فبينا هو كذلك إذ أبصره النبيَّ صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه ، فقال : غلبتني نفسي ، فقال له النبيَّ صلى الله عليه وسلم :

ألم يكن لك بدٌّ من الذي صنعته؟ من هذا التوجه النبوي ، نجد أنّه في الوقت الذي تشجّع فيه العقيدة كلّ محاولة صادقة من الإنسان للسيطرة على نفسه ، نجد أيضاً أنّها لا تُحبّذ اتّباع الأساليب غير المعقولة للسيطرة على النفس ، فالنفس تحتاج إلى صبر وسياسة طويلة ورياضة خاصة لتقلع عن ضراوة عاداتها .

البناء الأخلاقي

العقيدة تشكّل مرتكزاً متيناً للأخلاق ، لأنّها تخلق الواعز النفسي عند الإنسان للتمسك بالقيم الأخلاقية السامية ، على عكس العقائد الوضعية التي تساير شهوات الإنسان ، وتنمّي بذور الأنانية المغروسة في نفسه والأخلاق تحظى بأهمية استثنائية في العقيدة الإسلامية ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق وقال صلى الله عليه وسلم الخُلق الحسن نصف الدين ، وقيل له : ما أفضل ما أعطى المرئ المسلم؟ قال : الخُلق الحسن .

والإسلام يربط بين الدين الحق والأخلاق ، مثل هذه الرؤية تتضح خطوطها في أنّ الدين يحثُّ على الأخلاق الحسنة ويقوم بتهذيب الطباع ويجعل ذلك تكليفاً في عنق الفرد يستتبع الثواب أو العقاب ، وعليه فلم يقدّم الدين توجهاته الأخلاقية المثالية بصورة مجردة ، وإنّما جعل الأخلاق نصف الدين ، لأن الدين اعتقاد وسلوك والأخلاق تمثل الجانب السلوكي للفرد.

الباب الرابع

العقيدة وبناء الحضارة عند المفكرين

☆☆☆

هذه جولة مع جانب من أفكار الأستاذين مالك بن نبي، ومحمد فتح الله كولن، حول دور العقيدة وأثرها في بناء الحضارة، واستعادة نهضة العالم الإسلامي وقد أكدت على أن هذين المفكرَيْن المسلمَيْن مهمومان بقضية النهضة، وأنهما يحملان هَمًّا مشتركًا، وينتميان إلى غاية واحدة، وينطلقان من مصادر واحدة، ومرجعهما الفكري واحد كما أنهما يعالجان مشكلات لا تخلو من التشابه ثم إنهما جنديان في كتيبة هذا الفكر الإسلامي الذي يبحث عن حلول لنهضة هذه الأمة وإخراجها من عوامل التقهقر والتخلف التي أحاطت بها ويقدّران قيمة الفكر المحوّل إلى عمل وسلوك إيجابي تقديرًا عاليًا؛ لأن هذا الفكر الإيجابي هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديماً ويؤكد كثير من المهتمين بفلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ، أهمية العقيدة في بناء الحضارة الإنسانية وفي ازدهارها، ومن أشهر هؤلاء جوستاف لوبون مؤرخ الحضارة المشهور الذي أوضح هذه الأهمية على نحو قاطع لا يحتمل لَبْسًا؛

فقد ذكر أن أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم، والتي تعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة، تتمثل في المبادئ الدينية التي كانت على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم والشعوب، ومن ثم كانت أهم عنصر في تاريخها، لذا كانت أكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار في حياة البشرية، هي قيام الحضارات وسقوطها.

وقد احتل الدين هذه المكانة العظمى، لأنه -في رأيه- هو العامل الوحيد الذي تتوحد به وقتًا ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها ويقوم الدين بهذا كله دفعة واحدة، مستغنياً بذلك عن غيره من العناصر التي تتكون منها روح الأمة، والتي لا تنتج هذه النتيجة إلا على مدى طويل في التاريخ.

أن قيام الأمم بأعظم الأعمال، كان في عصر هذا التطور الذي يحدثه الدين في نفوس أتباعه، والذي بسببه تأسست أكبر الممالك في التاريخ وكان من أبرز الأمثلة تاريخ الأمة الإسلامية التي نشأت وتطورت على أساس تلك الفكرة الدينية فاستطاع هؤلاء الذين ينحدرون من سلالات بعض القبائل العربية، أن يقهروا أمماً كانت لا تعرف عنهم حتى الأسماء، وأن يشيّدوا تلك الدولة الكبرى.

ويوجد مثل هذا الرأي -كذلك- لدى مؤرخ وفيلسوف كبير هو أرنولد توينبي، الذي يقرر أن للعقائد الدينية دوراً مهمًّا للغاية في مجريات التاريخ؛ حيث كانت البوذية سببًا في وجود حضارة الشرق الأقصى، وكانت العقيدة الهندوكية وراء ميلاد الحضارة الهندية، وكانت العقيدة المسيحية سبباً في نشأة الحضارة المسيحية الشرقية والغربية وكان الإسلام هو المصدر الذي انبثقت منه الحضارتان؛ العربية والإيرانية وهكذا كان للعقيدة أثرها البالغ في نشأة الحضارة الإنسانية في عصورها المختلفة

وفيما يتعلق بالإسلام خاصة أشار توينبي إلى أن التوفيق الذي أصابته الدولة الإسلامية وهو توفيق مذهل في رأيه كان يرجع إلى العقيدة الإسلامية وحدها ويتكرر مثل هذا الرأي لدى فلاسفة آخرين، ممن شُغِلوا بفلسفة الحضارة وبيان أثر الدين في نشأتها وازدهارها ومن هؤلاء هنري بين، وهرمان دي كيسلر لنج، وأمثالهما ممن لاحظوا هذا الارتباط الوثيق بين الدين والحضارة ومن ثم كان ينبغي -في نظر هؤلاء الباحثين أن نبحث في أي حضارة من الحضارات، عن أصلها الديني الذي بعثها.

ولم يكن غريباً إذن أن يهتم مفكرو الإسلام بتأصيل هذه الفكرة، وتطبيقها على الحضارة الإسلامية التي كان الإسلام بلا منازع هو أصل نشأتها وباعث نهضتها، وإليه ترجع عوامل ازدهارها وقوتها وهو بالنسبة لها جذر الشجرة للشجرة؛ فهو الذي يمدها بالحياة والقوة والنماء، لذلك كانت شديدة الحاجة إليه فإذا حيل بينه وبينها،

أو ضعف تأثيره في عقل أصحابها ووجدانهم وأخلاقهم، كان ذلك نذير ضعفها وتقهقرها، وربما أدى ذلك إلى انهيارها وفنائها وقد كان الخوف على الإسلام وحضارته ومصير الأمة التي تؤمن به، من أقوى البواعث على الاهتمام بإحياء هذه الفكرة على مستوى النظر العقلي، والشعور النفسي ، والسلوك الخلقي، والارتباط الاجتماعي، لاستنهاض الهمم، وتجديد اليقين بأن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها، وأن الإسلام بمفهومه الشامل عقيدة وشريعة وأخلاقًا وتجربة تاريخية شامخة هو طوق النجاة للأمة من وهدتها الحضارية التي ترددت فيها في القرون الأخيرة، وأنه صالح بما جعل الله فيه من سمات الخلود والقدرة على المقاومة والنزال التاريخي للقوى المعادية أن يستعيد عافيته، ويعاود قدرته على التأثير وتحريك الطاقات المادية والمعنوية لدى المؤمنين به،

وأن يزيح من طريقه كل العوائق التي تحاول إضعافه وإبعاده، سواء كانت عوائق خارجية كالاحتلال والعلمانية، لا سيما في صورتها الشاملة المتجاهلة للدين أوالمقاومة له، أم كانت عوائق داخلية كالفُرقة والانقسام والتخلف وشيوع التقليد والتمذهب والتشدد المجافي لروح الدين.

لقد تحدث مالك بن نبي كثيرًا عن ضرورة المنطق العملي الذي يلزم لتحويل الأفكار إلى أعمال، وللخلاص من الجدل الفكري الذي لا يؤدي في النهاية إلى تغيير في النفس والمجتمع.

وانشغل بهذا الهمّ كثير من مفكري الإسلام في أقطاره المختلفة، وكان منهم على سبيل المثال لا الحصر خير الدين التونسي ، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد إقبال، وحسن البنا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، وسعيد النورسي ثم كان من أكثر الذين انشغلوا بهذه القضية؛ مالك بن نبي المفكر الجزائري الكبير ١٩٧٣م والمفكر التركي الكبير محمد فتح الله كولن.

أثر الدين في بناء الحضارة عند مالك بن نبي

كان بناء الحضارة واستعادة النهضة للعالم الإسلامي، من أهم الشواغل الفكرية لمالك بن نبي ويمكن اعتبار هذا الجانب، ركنًا أصيلاً وجوهريًا في مشروعه الفكري، كما تدل على ذلك كتاباته ومقالاته التي استمرت في الظهور، معبّرة عن اهتماماته الفكرية والعملية مدة تقارب نصف قرن ويمكن القول بأن انشغاله بهذه القضية الكبرى، لم يكن مجرد استجابة لدوافع فكرية أو فلسفية خالصة؛ بل كان استجابة لدوافع دينية تتمثل في انتمائه إلى الإسلام الذي أقام على امتداد قرون حضارة شامخة أسهمت في تاريخ الحضارة الإنسانية ثم كان هذا الاهتمام، ردّ فعل لهذا الواقع المؤسف الذي كانت تمر به الأمة الإسلامية التي كان لها بفضل الإسلام مكانة رفيعة في بناء قواعد العلم والثقافة، والارتقاء بالأخلاق، وتحقيق مفاهيم العدالة والأخوة الإنسانية لكنها وقعت في القرون الأخيرة فريسة للأمّية والجمود الفكري والركود الحضاري

، ثم للاحتلال الذي أنهك قواها ونهب ثرواتها، وعمل على فصلها عن جذورها الدينية وروافدها الثقافية، كما عمل على تفتيتها وتقسيمها على نحو أفقدها كثيرًا من عوامل قوتها وعناصر أصالتها، وطبعها في كثير من جوانب حياتها بالتبعية لنموذجه الحضاري.

وقد كان مما تبين لمالك بن نبي أن محنة العالم الإسلامي ترجع إلى سببين:

أولهما أن الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام فقدت التصاقها بالواقع، ومن ثم لم تعد قادرة على التأثير فيه. ومن ناحية ثانية، فإن أفكار أوروبا التي أدّت إلى تشييد الحضارة الأوروبية، ليست قادرة على النهوض بالعالم الإسلامي؛ لأنها وافدة من ثقافة غير ثقافته، ولم يتح لهذه الأفكار أن تؤثر في الواقع الإسلامي كما أثرت في بلد كاليابان والمحنة إذن مركبة ونحن اليوم نقاسي هذا التدهور المزدوج،

فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك، لها انتقام رهيب وكان مما أشار إليه في الجانب الأول المتعلق بالإسلام، أن العالم الإسلامي فقد الجذوة الروحية الدينية للإسلام، فلم يَعُدْ لها حضورها الفعال المؤثر في حياته كما كان الحال في عصر الازدهار الحضاري وفي هذا المعنى يقول: يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول إنه يتكلم طبقًا لمبادئ القرآن.

وكان مما أشار إليه في الجانب الثاني قوله إن اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا منها موقف الزبون؛ وقد استورد اليابانيون من أوروبا أفكارًا، بينما استوردنا منها الأشياء، واستوردنا الرذائل في كثير من الأحيان قبل أن نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة.

وكان على جميع المفكرين المهمومين بنهضة العالم الإسلامي، أن ينتبهوا إلى أن استعادة هذا العالم لنهضته، لن تتحقق باستيراد بعض العناصر من هنا أو من هناك ثم التلفيق بينها، بل كان عليهم أن يعملوا على تحديد العناصر الأساسية التي تسهم في خلق تركيب حضاري متجانس، بواسطة منهج يقوم على التحليل العلمي لهذه الظاهرة المركبة في جوانبها الفردية والاجتماعية، وفي عناصرها النفسية والتربوية.

عناصر بناء الحضارة

للحضارة تعريفات متعددة تختلف باختلاف الفلاسفة والمفكرين، كما تختلف باختلاف الثقافات والأيديولوجيات؛ ويقع الاختلاف في النظر إليها من حيث مقوماتها وعناصرها، ومن حيث الطابع الغالب عليها، ومن حيث علاقتها بالثقافة، وتساق التعريفات بالعشرات، بل تدخل في نطاق المئات ولا يشغل مالك بن نبي نفسه بالدخول في جدل نظري حول هذه التعريفات، بل يقدم تعريفًا لها من وجهة نظر وظيفية كما يقول: الحضارة جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع

ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره ثم هو يعرّفها تعريفًا آخر أكثر تفصيلاً فيقول عنها إنها مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طوْر من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية في هذا الطور من أطوار نموه، كالمدرسة والمعلم والمستشفى ونظام شبكة المواصلات واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعاً أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه ويلاحظ أن الحضارة لديه تأتي بمفهوم شامل للعناصر المعنوية والمادية، وأن الجانب المعنوي والأخلاقي فيها يأتي سابقًا على الجانب المادي منها كما يلاحظ في التعريفين، أن الحضارة ذات صبغة اجتماعية؛ لأن الفرد وحده لا يصنع حضارة، ومن ثم فإن المجتمع الذي هو صانع الحضارة مكلّف بأن يضمن وصول ثمرات الحضارة إلى كل فرد من أفراده، دون أن تستأثر بها طبقة أو فئة أو عنصر، كما وقع في بعض الحضارات القديمة والحديثة على حد سواء.

وإذا كان المجتمع الإسلامي يتطلع إلى تحقيق دورة جديدة من دورات الحضارة، فعليه أن يعرف مكانه من هذه الدورة، والشروط التي عليه أن يقوم بها، مع معرفة ما هو واقع فيه من عوامل الانحطاط، وما تنطوي عليه من أسباب التقدم ثم عليه أن يتذكر بدقة نقطة الانطلاق في دورة الحضارة السابقة، حتى يفيد من تجربته الماضية فيما يطمح إلى تحقيقه في حاضره وفي مستقبله، وها هو يقول: ولعل أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ، أننا نجهل النقطة التي نبدأ منها تاريخَنا ولعل أكبر أخطاء القادة، أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه، حيث يسير خبط عشواء.

إن الإنسان هو صانع التاريخ والحضارة وهو باني المجتمعات ومؤسس العمران، وهو مُبْدع الأفكار وحاملها وهي ذات قيمة كبرى في بناء الحضارات لذلك لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار.

وينبغي كذلك أن تكون على علم بالمقومات الأساسية والجوهرية التي تقوم عليها الحضارة، ويشير مالك في هذا الصدد إلى عناصر ثلاثة، هي الإنسان، والتراب، والوقت وقد تحدث عنها باستفاضة، وأشار إليها في أوائل ما كتبه عن النهضة مثل شروط النهضة، وظل حريصاً عليها فيما ظهر بعد ذلك من مؤلفات، حتى إنه لَيقول في واحد من مؤلفاته الأخيرة: ولو سُمح لي أن ألخصّ وجهة نظر عَبَّرت عنها منذ ربع قرن، لقلت إنه ليس من الضروري ولا من الممكن أن يكون لمجتمعٍ فقيرٍ الملياراتُ من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئًا؛ الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت.

وليست هذه العناصر أو الأضلاع الثلاثة على درجة واحدة من الأهمية ، بل إن الإنسان هو أكثرها أهمية وقد يحدث أن تلمّ بمجتمع ما، ظروف أليمة تمحو منه عالم الأشياء محوًا كاملاً، أو تفقده ميزة السيطرة عليه بعضاً من الوقت: فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار، كان الخراب ماحقًا أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره، فإنه يكون قد أنقذ كل شيء؛ إذ يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء ثم إن الإنسان هو الذي يعطي العنصرين الآخرين أهميتهما؛ فهو الذي يعمل لاستثمار عامل الزمن إذا كان إنسان حضارة، وهو الذي يتفاعل مع العناصر المادية التي يتضمنها عنصر التراب وتقوم التربية بدور مهم في تحقيق هذه المهمة الكبرى، بتزويد الإنسان بالعناصر الأخلاقية والجماعية والعملية والتطبيقية، الملائمة لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون وهكذا ينتهي مالك إلى القول بأنه وفي نقطة انطلاق الحضارة ليس أمامنا سوى العوامل المادية الثلاثة: الإنسان، التراب، الوقت وفي هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي، الذي يمدها في خطواتها الأولى في التاريخ.

لكن هذه العوامل لا تقوم بدورها في بناء الحضارة، ولا تبدأ عملها في التاريخ كما يقول إذا ظلت منفصلة بعضها عن بعض ولا بد إذن من مزج هذه العناصر وتركيبها، وإلا لكان لزاماً أن تستطيع كل جماعة بشرية تمتلك هذه العناصر متفرقة، أن تنشئ حضارة وهذا غير متحقق في الواقع، لأن هناك جماعات بشرية ما زالت تعيش حتى الآن في حالة ما قبل الحضارة ومن أمثلة ذلك أن جزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، ومن ثم كانت هذه العناصر راكدة لا تؤدي دورًا ما في التاريخ ويختلف المؤرخون وفلاسفة الحضارة في تحديد هذا العامل المؤثر الذي يقوم بتركيب هذه العناصر؛ فالمؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي يرى أن أهم العوامل في قيام الحضارة يتمثل فيما أسماه نظرية التحدي والاستجابة فالتحدي يثير القوى الكامنة في المجتمع، ويؤدي إلى تعظيم طاقتها وقدرتها على مقاومة العقبات والمشكلات والتحديات العارضة لكن مالكًا ينقد هذا الرأي ويرتضى رأيًا آخر لبعض فلاسفة الحضارة، ممن يذهبون إلى أن الدين هو أكثر العوامل تأثيرًا في بناء الحضارات.

ويرى مالك أن الدين في تركيبه لعناصر الحضارة، أشبه بالموصِّل الذي يقوم بتوصيل أطراف الأسلاك الكهربية بعضها ببعض حتى يتولد التيار الكهربي ويمكن تشبيهه كذلك بالعامل الوسيط في التفاعلات الكيميائية؛ فالأكسوجين والأيدروجين لا يكوّنان الماء تلقائيًا، بل إن ذلك التركيب يخضع لقانون معين يقتضي تدخل مركب ما، بدونه لا تتم عملية تكوين الماء: وبالمثل لنا الحق في أن نقول إن هناك ما يطلق عليه مركِّب الحضارة، أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض وهذا العامل الذي يدل عليه استقراء التاريخ، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ.

ولكي يؤكد هذه الفكرة، شرع في تحليل عدد من الحضارات، ليبحث عن السبب الفاعل في نشأتها حتى لا يقال إن هذا الأمر خاص بالإسلام وقدم في هذا المجال شواهد من الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية اللتين تنطلقان من الفكرة الدينية، وخلص من ذلك إلى القول بأن الحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ثم يضيف قائلاً: ولعله ليس من الغلو في شيء، أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية.

إذا كان المجتمع الإسلامي يتطلع إلى تحقيق دورة جديدة من دورات الحضارة، فإن عليه أن يعرف مكانه من هذه الدورة، والشروط التي عليه أن يقوم بها مع معرفةِ ما هو واقع فيه من عوامل الانحطاط، وما تنطوي عليه من أسباب التقدم وهكذا يقرر في لهجة واثقة مستندة إلى الاستقراء التاريخي، ما يشبه أن يكون قانونًا عاماً

أو ما يسميه سرا كونيا يحتل فيه الدينُ هذا الموقع المهم في مجريات التاريخ الإنساني، يقول فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي من السماء أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام؛ فكأنما قَدَرُ الإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء، التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها.

ولا يفتأ مالك يؤكد هذه الفكرة التي كانت تلح على فكره ووجدانه، فكان يكررها كلما وجد مناسبة لذلك، وكان يضيف إليها شواهد جديدة عند تكراره لها وقد ذكر أن الحضارات الهندوسية والبوذية والموسوية والمسيحية والإسلامية، قد ولدت من هذه الانطلاقة الروحية التي أقامت هياكل براهما ويَهْوَهْ، ومعابد البوذية، والكنائس القوطية، والمساجد الإسلامية فكل هذه الحضارات المعاصرة لنا، قد شكلت تركيبها المتآلف الأصلي للإنسان والتراب والزمن، في مهد فكرة دينية.

وقد أحس مالك أن من الممكن أن يُعتَرَض على هذه التحليلات كلها بالماركسية التي ترفض الدين أصلاً، ولهذا كان حريصًا على القول بأن الاشتراكية أو الماركسية في الاتحاد السوفيتي الذي كان ما يزال موجودًا في حياة مالك ليست استثناء من هذا القانون العام الذي تخضع له تلك الحضارات التي ذكرها، مع أنها ترفض الدين وتراه وسيلة برجوازية يراد بها صرف الطبقات العاملة عن المطالبة بحقوقها من أصحاب المال، اكتفاء بما سيلقونه من جزاء في الآخرة؛ لأن الأيديولوجية الماركسية قد تحولت عند أصحابها إلى عقيدة تماثل في قوتها وتأثيرها عقائد المؤمنين بالأديان، وأنها قد استخدمت لنموها واكتمالها كلّ البنى التحتية: النفسية والمفاهيم المسيحية ولا يفوت مالك بن نبي أن يشير إلى أن جيفارا الذي كان يخوض غمار النضال الماركسي لتحرير بعض دول أمريكا اللاتينية من براثن الاحتلال، كان يتحدث أحيانًا بنفَس تدخله حدة دينية.

ولم يكن مالك يجهل أن هناك نظريات كثيرة تفسِّر قيام الحضارة أو النهضة وقد ذكر عددًا من هذه التفسيرات، ومن بينها ما يتعلق بعبقرية النوع أو العنصر البشري، ومنها ما يتعلق بتأثير الجغرافيا، ونظرية التحدي والاستجابة، ومنها ما يتعلق بالعوامل المادية والاقتصادية كما هو الشأن في التفسير الماركسي لكن ذلك كله لم يكن كافيًا لزحزحته عن انحيازه لتأثير الفكرة الدينية التي رأى أنها لم تكن ذات تأثير مهم في نشأة الحضارات في الماضي فحسب، بل إنها صالحة في الحاضر والمستقبل لإحداث النهضة أيضاً: فإن قوة التركيب لعناصر الحضارة، خالدة في جوهر الدين وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين حسب العبارة الشائعة مؤثر صالح في كل زمان ومكان ما لم يخالف الناسُ شروطه وقوانينه.

ولا يكتفي بتقرير هذه الفكرة عن تأثير الدين من الناحية النظرية، بل إنه يُعنَى بذكر بعض المسائل التفصيلية المستندة إلى وقائع عملية تشهد كلها بصحة الفكرة وتؤكدها وكان من جملة ما قاله أن الدين هو الذي يطلق الشرارة الروحية في النفس الإنسانية، ويعمل على إطلاق الطاقات الكامنة فيها، وتمثلها لحظةُ التوتر التي تحرك هذه الطاقات الخاملة الخامدة، وتدفعها إلى الحركة والتأثير والفاعلية.

وفي هذا يقول: إن الإسلام أتى بالمبررات الكفيلة بتحقيق أقصى ما يمكن من التوتر في الطاقات الاجتماعية، وأسمى ما يمكن من المصلحة التي تخدمها تلك الطاقات وبدأ هذا التأثير في حضارة الإسلام عندما تجلى الروح بغار حراء؛ فبدأت الحياة تدب في هذا المجتمع العربي، محدثة نقلة هائلة في حياته وفي رسالته.

ويشير مالك هنا إلى أن المجتمع العربي قبل الإسلام لم ينتج إلاّ عشر معلقات؛ ومعنى ذلك أنه كان في حالة من الخمود التي لا تسمح له باستثمار طاقاته، وأنه لم يكن في حالة من التوتر الاجتماعي الذي يدفع إلى الإنتاج بقوة وحرارة، وعندما جاء الإسلام استطاع أن يقيم حضارة خلال نصف قرن ومعنى ذلك أن الإسلام أتى بالمبررات الدافعة لليد والعقل والقلب، لكي تحقق متساندة حضارة ذات إشعاع.

ولا يقتصر دور الدين على إطلاق الشرارة أو إعطاء لحظة التوتر، بل إنه يعطي كذلك للحياة هدفًا ومعنى، ويعطيها امتداداً وديمومة، ويحدد لها قيماً كبرى يسعى الإنسان إلى تحقيقها وهكذا يمنح الدين للإنسان الوعي بهدف معين تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى وحينما تمكِّن الفكرة الدينية لهذا الهدف من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكّنت لبقاء المجتمع ودوامه وهكذا كان للإسلام الفضل في تحريك الإنسان السابق على الحضارة، الذي تحول بالإسلام إلى أن يكون صانع حضارة، إلى حيث يسوقه الله.

إن قدرة الإسلام على بناء الحضارة قدرة متجددة، والعالم الإسلامي لن يستعيد حضارته إلا بالإسلام؛ ولكن الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا ، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي ولعل من أهم ما يحققه الدين للإنسان ، أنه يزوده بالقيم الأخلاقية التي تحكم سلوك الفرد، وتهذب مشاعره، وترتقي بسلوكه، وتجعله بالقبس الروحي الذي يمتلئ به ضميره، ويتطهر به فكره رقيبًا على ذاته، محاسبًا لنفسه، لا يستنكف من الاعتراف بخطئه، ولا يتأبى على تحمل عواقبه مهما كانت جسيمة ولا يستطيع شيء غير الدين، أن يمنح أتباعه مثل هذا المستوى العالي من التطهير الذاتي، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حكامهم.

وبهذا تكون تلك الروح الخُلُقية منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ثم إن الدين من أقوى العوامل تأثيرًا في الإرادة الإنسانية، التي يمنحها الدين صلابة وجرأة وقدرة على الحركة والمقاومة والتغيير التغيير المرهون في الإسلام بتغيير النفس؛ قال تعالى (إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّر مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) ويرى أن هذا يمثل النص المبدئي للتاريخ التكويني، لكنَّ على المسلمين ألاّ يكتفوا بتقرير هذا المبدأ من حيث الإيمان به فحسب، بل يجب أن ينقلوه إلى ساحة التاريخ، وبناء على ذلك يقول : وإنها لشرعة السماء: غيِّر نفسك تُغيِّر التاريخ.

ولا يتوقف تأثير الدين على التأثير في أخلاق الفرد وإرادته ووعيه، بل إن هذا التأثير يمتد إلى التأثير في عقل الإنسان وفكره؛ فالعقل يفقد فاعليته بل يفقد معناه إذا غابت قيم الإيمان فأينما يقف إشعاع الروح يخمد شعاع العقل؛ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم، وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان، وليس هذا بغريب إذا تذكرنا أنه يشير إلى أن الدين يمنح الإنسان معنى الخلود، ويفتح له باب الأمل،

ويمده بالطاقة التي تمكّنه من احتمال الألم ومواجهة النكبات ثم يمتد تأثير الدين إلى الحياة الاجتماعية أيضاً، فالدين يربط الأفراد بعضهم ببعض: (هُوَ الَّذي أَيَّدكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّف بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّف بَيْنَهُمْ إِنَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، وهو قادر على التأثير في الشبكة الروحية والعلاقات الاجتماعية والتغييرات النفسية وينقلهم بهذا، من الأنانية والفردية والعصبية والدوائر الضيقة المتمثلة في الفئة والطبقة والمستوى الاجتماعي والمادي، ليكون الجميع عباد لله إخواناً، يجمعهم هدف، وتربطهم غاية، يقول مالك بن نبى إن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد، يعرض على أخيه أن ينكحه مَن يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، لكي يبني بذلك أسرة.

وكان للمجتمع الإسلامي الوليد نفس الهمة عندما كان يسمع نشيد الإسلام الفتي في أعماق روحه، ذلك النشيد الذي كان يسوق الأبطال إلى ميادين القتال أو إلى ميادين الشغل سواء ثم إن المجتمع لا يستطيع أن يجابه أهوال الزمن، إلا بجهد تدعمه عقيدة لا يعتريها الشك أبداً، كذلك فإن التعاون بين الدولة والفرد، لا بد له من جذور في عقيدة تستطيع أن تجعل ثمن الجهد محتملاً مهما كانت قيمته لدى صاحبه، يضحّي بمصلحته وحتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره ولعل هذا كله يكشف لنا بوضوح رأي مالك في علاقة الدين عموماً بالحضارة، وعلاقة الإسلام خصوصاً بها وهو يرى ونحن معه أن قدرة الإسلام على بناء الحضارة قدرة متجددة، وأن العالم الإسلامي لن يستعيد حضارته باتباع الشرق أو اتباع الغرب، بل إنه لن يستعيدها إلا بالإسلام؛ ولكنه يتساءل: أي إسلام؟،ثم يجيب قائلاً : الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي وقوةُ التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة، وفي يدها ضماناً لذلك تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة وسط البدو، رجال الفطرة والصحراء .

ويقرر مالك في لهجة حاسمة كانت تفرضها واقعيته أن الإسلام ليس في حاجة إلى مديح دون عمل به، لأن هذا نوع من التعويض بالكلام عن الواقع، والإسلام هو الفكرة والمنهج، أما الإنسان فهو الذي يقتنع بالفكرة ويطبق المنهج، ويستخدمهما في تحقيق تقدمه: ولا شك في أننا حين ننقد مظاهر ضعف هذا العامل، فإن ذلك خير وأفعل من أن نستطرد في تقريظ الآلة، ولا جدال في أن الإسلام قد احتفظ بمضائه كدُرَّة فريدة في التاريخ، ولكن المسلم هو الذي فقد استخدامه الاجتماعي لقد تحدث مالك بن نبي كثيراً عن ضرورة المنطق العملي الذي يلزم لتحويل الأفكار إلى أعمال، وللخلاص من الجدل الفكري الذي لا يؤدي في النهاية إلى تغيير في النفس والمجتمع.

وقد بقيت أفكار مالك تحلق في سماء الفكر الإسلامي، بما يتحقق لها من فهم عميق وتحليل للمشكلات التي يعاني منها المجتمع الإسلامي في حياته العملية، أو في علاقته بالقوى المؤثرة في العلاقات الدولية وقد حلل هذه المشكلات بروح الفليسوف،

ومبضع الجراح وأدوات المهندس، مع رغبة في البناء وإرادة للتغيير ولكنها ظلت عملاً فكريًا شامخًا يقوم على تكامل في الرؤية، واعتزاز بالإسلام دينًا وحضارة وأخلاقًا وجدارة باستعادة النهضة للأمة، بل للإنسانية وقد أشبه في هذا ما قدمه كثير من المشغولين بالنهضة في عالمنا الإسلامي منذ قرنين أو أكثر من الزمان، ولكنها كانت جميعاً بحاجة إلى الانتقال من عالم الفكر إلى عالم الواقع، ومن خزائن الكتب إلى حيز التطبيق وهذا هو الذي حاوله فريق آخر من المهتمين بنهضة الإسلام، وكان من أبرز هؤلاء الأستاذ محمد فتح الله كولن.

٢- محمد فتح لله كولن

بدأت حياة الأستاذ محمد فتح لله كولن في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين ١٩٣٨م، وكان العالم الإسلامي عندئذ بل قبل ذلك بقرون يعاني من الركود الفكري والتخلف المادي، كما أنه خضع لصراع مع الحضارة الغربية التي جاءت إليه غازية محتلة تبتغي احتلال أرضه، والحصول على ثرواته، وتقسيم شعوبه وبلدانه، وبذل الجهود لفرض نموذجها الحضاري عليه، وحملت إليه فكرها وثقافتها لتقاوم عوامل القوة والتماسك والاستمرار فيه، وعلى رأسها انتماء هذا العالم إلى الإسلام.

وكان لهذا كله، أثر في حياة المسلمين ويشير الأستاذ كولن إلى ما أسماه التآكل الذي أصاب المسلمين في بنائهم الداخلي، من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلفهم بمراحل طويلة عن العصر وكان من مظاهر هذا التآكل التضحية بالدين في سبيل الدنيا طمعًا في عمارة دنيانا، وتبنّينا منهجاً يرجّح الدنيا على الدين؛ فضاع الدين، وفرّت الدنيا، وعاش العالم المجيد التعيس مرحلة التفريغ لميراث مبارك من ألف عام.

ولم يكن كولن من هؤلاء الذين يستسلمون لضغط الواقع مهما كان ثقيلاً، بل إنه بما أوتي من بصيرة وأمل، وما تسلح به من همة وعزيمة كان ينظر إلى عوامل القوة التي ما تزال كامنة في هذا العالم الإسلامي رغم ما يبدو عليه من ضعف ولهذا نجده يقول: وما زالت الأرض بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، رغم أنف الأشياء قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، مالكة لطاقةٍ تُحقِق بعثًا جديدًا بعد الموت، وإنّ أمّتنا تمتلك تراكماً علميًا يجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة ولم يغب عن فكر كولن ولا نظره، أن هناك محاولات للنهضة والإصلاح والبعث تشهدها تركيا وأماكن أخرى في العالم الإسلامي، لكنه نظر إلى هذه المحاولات نظرة نقدية اتسمت بالصراحة والموضوعية والجرأة بل والحدة أحيانًا لذلك وصف بعض هذه المحاولات بأنها تقليد وضيع، وتَكلُّم بلسان الغير، وتجديد شكلي،

وظهر فيما يقال إنه تجديد تلبُّس الفكر المِلِّي الديني بلبوس الفسق وتخريب روح الملة وما كان لمثله أن يهادن مثل هذا الفكر، أو أن يتسامح مع هؤلاء الذين يرفعون رايته، وهو يرجو للأمة كلها وفي مقدمتها تركيا إصلاحًا حقيقيًا يعيد لها مجدها العلمي والفكري والسياسي الذي كان لها من قديم.

وقد تصدّى كولن بقوة لدعوات التغريب التي كانت تروِّج للنموذج الغربي على الرغم من سوآته وسيئاته الكامنة في بنيته الأخلاقية وسلوكه العلمي واستعلائه على الشعوب، ثم إهماله للدين قبل هذا كله. وفي هذا يقول: وما فعله الغرب حتى اليوم هو إهمال القيمة الدينية، ووصايا السيد المسيح ؛ إذ شنوا الحروب في القارات، وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلوا، فلطّخوا وجه العالم بالسواد، ثم يضيف قائلاً: ثم إن هذا العالم يحاول أن يسلي نفسه بالمنجزات العلمية والتكنولوجيا هنا وهناك عن غمِّه بالثروة والراحة أحيانًا، لكن من البدهي أنها لن تمنح الإنسان سعادة مستمرة أبداً

لذلك ما من شيء يتخذه دواء وعلاجاً، إلا ويزيد في قتامة أفق الأمل الإنساني، ويضيف بؤساً إلى بؤسه الروحي ثم نراه يكرر في لهجة حاسمة أن العالم لم يعرف حتى اليوم ايديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنًا طويلاً، وأن الدول الغربية لم تستطع رغم الادعاءات الكثيرة أن تحقق الأمان للعالم، ولا أن تحقق السعادة له، ولم يفلح في ذلك دعاة الرأسمالية في الغرب ولا دعاة الشيوعية في الشرق، ولا المحايدون؛ وهذا الإخفاق زعزع أركان الثقة في هذه النظم أمام العالم، إضافة إلى عجز الحلول المطروحة وقصورها عن احتضان البشرية، ومخالفتها للطبيعة الإنسانية ولهذا تقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يُعْرَضُ عليها، موقف الشك والقلق ثم ذكر أن من أهم عيوب هذه النظم وأنكاها، إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية، فذلك كله قوّض أركان الأيديولوجيات كلها، فخلفت خرائب وأنقاضًا فكرية ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليوم إلا شرذمة قليلة في حالة تزعزع وخيبة أمل مريب، وبحث عن مخرج خارق للأسباب .

ولم يكن هذا المفكر الذي نشأ في أحضان الإسلام، بحاجة إلى مزيد من البحث عن مخرج؛ لأن المخرج حاضر في ذهنه ووجدانه، مجرّب على مدى تاريخ طويل، وهو صالح لإعادة الحياة من جديد إلى هذا العالم الإسلامي، الذي فقد روحه، وتخلى عن عوامل قوته وكان هذا المخرج هو اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعار هذا الإيمان في وجدانه.

وهنا ينطلق كولن في حديث مستفيض عن الدين وأهميته، وأثره في التكوين النفسي والخلقي والاجتماعي للمؤمنين به، بما يسمح بتقدم المؤمنين به على نحو لا يحققه غيره، بسبب هذا الانسجام والتكامل بين قوي النفس في الفرد، وبين الأفراد بعضهم وبعض في المجتمع ومن شأن هذا أن يؤدي إلى حسن استثمار كل الطاقات والملكات والمواهب والإرادات والأعمال، كما أنه يؤدي إلى ضبط حركتها، ومنع تصادمها؛ حتى لا يقع صراع أو اختلال في نظامها، وتضادّ في حركتها، بما يترتب على ذلك من فشل في تحقيق أهدافها

ويضيف كولن أن الأديان كلها جاءت لترسخ هذا الفهم، فقد وَضَع كلٌ دين ضوابط لتنظيم القدرات الفردية، فحوّلتها إلى مقومات مهمة في توجيه كل الطاقات الكامنة الموجودة، نحو المسير إلى حضارة جديدة وعمران جديد فبإرشاد الدين يوازن كل فرد حريته وفعاليته الشخصية مع حركة المجتمع وفعاليته، والمتدين ينجح في هذا التفاعل بين الفرد والمجتمع، فيكون كالنجم في موقعه يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت نفسه ويتحقق هذا بالدين؛ لأن الدين إذا تغلغل في الضمير وفي الشعور، يؤدي إلى ما يشبه أن يكون ولادة جديدة للإنسان، ويؤثر في قواه تأثيرًا غير محدود، وأنه كلما تغلغل في القلوب فسيتمادى تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية، وبعد مدة سيحقق حدوث طبيعة ثانية فيه هذه الطبيعة ستبدي تأثيرها من الأعماق رويدًا رويدًا في كل صفحات حياته ومعتقداته وعباداته وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته.

إن كولن يقدّر قيمة الفكر تقديرًا عاليًا، ويرى أنه في ظروف عصرنا هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديماً، لذلك كان من صفات إنسان الفكر أنه وليّ الحق اللدني الذي يُعِدّ قادة أركان الروح ومهندسي العقل وعمّال الفكر، بدلاً من استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش.

وإذا كان هذا التأثير يرتبط بالدين عموماً، فإن ارتباطه بالإسلام أكثر قوة بسبب هذا الشمول الذي للإسلام وهو ليس شمولاً في جمعه بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق فحسب وهذا من عوامل كماله وتميزه بل إنه شمول يمتد إلى التأثير البيّن في الحياة الاجتماعية؛ لأنه يقيم حياة الأفراد والجماعات والنظم على العدل والاستقامة، ويحرر البشر من سلطة الأقلية، ويعمل على تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص، ويقاوم الإقصاء والإبعاد لأصحاب الكفاءات لأسباب عنصرية أو سلطوية،ثم يعمل على إيقاظ الحركة الداخلية للفرد ويراعي خصوصيات الإنسان الأساسية مراعاة تامة،

ويوقظ ملكاته الذهنية والفكرية والروحية جميعها، ثم يشحنه بطاقات متنوعة، فلا يحصر توجهه في العقل والفكر، ولا يهمل أحاسيسه، ولا يغض البصر عن آليات وجدانه كما تفعل بعض المدارس الفلسفية، بل إن الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكلِّه الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام ويعدُّه بعناصر وجوده المادية والمعنوية كلها، ليكون جاهزًا للسعادة الدنوية والأخروية، وأهلاً لدخول الجنة.

ويتنوع حديث كولن عن هذا الإسلام ويشف، ويكتسب مسحة روحية وجدانية -فضلاً عن طابعها العقلي ليزداد حديثه عن الإسلام قوة في بيان تأثيره في الفرد والمجتمع، ويتجلى هذا في بعض الأوصاف التي وصف بها هذا التأثير فالإسلام هو مصدر غذائنا الأصيل كحليب الأمهات وهو - كذلك يحدد للإنسان الهدف الذي هو مُوَلِّد الطاقة الدينامو الأساسي لهذا الإنسان، وهو الذي يرتقي بالملكات الإنسانية عندما تعتنق هذا الدين، فترث مواريث الإيمان في النفوس والعقول والمشاعر والأحاسيس

ثم يتحول هذا كله في النفس الإنسانية إلى نوع من العشق والاشتياق الذي يجعل من الإنسان المؤمن إنسانًا جديدًا قائمًا على محور الوجدان ثم يمتد التأثير إلى كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق، فتصير عباداته وطاعاته وحركته كلها انعكاساً لتأثير الدين في نفسه، وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها حول قوة الجذب المركزي هذه، فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية وتتوسع بها، ويصير هذا الإيمان بمثابة شجرة طوبى.

وتتكامل كل صفات الكمال للإسلام، فهو يجمع بين العقل والقلب، وبين الدين والعلم، وبين الفكر والعمل، وبين الاعتقاد والسلوك، وبين المنطق والشعور، دون صراع أو تنافر ثم هو يقدم للبشرية كلها نظاماً للحياة جديداً وفريداً يقيم الوشائج بين الكائنات وخالقها،

ويقطع دابر التناقضات في الإلهيات، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم ثم تعلو نبرة الحديث عن الإسلام إلى آفاق علوية حين يصور آيات القرآن بأنها مائدة سماوية، وماء كوثر عذب رقيق، وشلال هادر شديد التأثير في قلوب من يستمعون إليه، وهو أشبه بفوارات دائمة الانبجاس، أو بالأحرى كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية ولا يوجد مثيل للإسلام في استجابته لحاجات الإنسان بل لن يوجد وهذا طبيعي للغاية لأن مصدره الأول هو الوحي الصافي النقي، وتفسيره الأول هو السُّنّة، فكما أن القرآن معجز، فكذلك نظامه المنبثق والمكوّن من خطاباته وتعاليمه معجز، وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل ولا نظير للإسلام الذي يعد من آثاره.

لم ينحصر مشروع فتح الله كولن في نطاق الفكر، بل إنه خرج إلى نطاق الحركة والتأثير، وتمثل في جماعة الخدمة التي اعتنقت أفكاره، وبذلت من روحها وجهدها وجهادها من أجل تطبيقها، وتحملت في سبيلها تضحيات ومشقات وحركة دائبة مستمرة؛ في تجرد كامل، وإخلاص عظيم، ودون انتظار لميزة مادية، أو مكانة اجتماعية، أو منصب رفيع وأما الروح الذي ينبثق من هذا الإسلام، فإنه لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه، طاهرًا أبدًا، نديًّا عميقًا لا يتكدر قط بالأوساخ الفكرية لأي زمان أو مكان.

أثر الإيمان في بناء الأمم

إن لصدق الإيمان بالله آثاره الواضحة في واقع حياة الأمم، ويتجلى ذلك بوضوح عند تتبع حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته كما أن الإيمان هو الركيزة الأساسية لتمكين الأمم في الأرض، بغض النظر عما تملكه من قوة وسطوة فيجب على أمة الإسلام القيام بدورها المنتظر في نشر الإيمان الصحيح ليتحقق بذلك للبشرية سعادة الدنيا والآخرة.

خرجت قريش يوم أحد بحدِّها وجدِّها وحديدها وأحابيشها، ومَن تابعها مِن بني كنانة، وأهل تهامة والظعينة موتورين بآبائهم وإخوانهم، يُجعجع فرسانهم، وتضرب بالدف نساؤهم، وينادي بالثأر جميعهم، فيهم مائتا فارس، على رأسهم خالد بن الوليد؛ يواجهون سبعمائة رجل؛ رجال حُسر، ولم يغنِ قريشاً أن بها خالد بن الوليد، ولم يستطع أن يفعل شيئًا إلا على غِرَّة، والمسلمون مشغولون، قد انفضوا من مواقعهم، واستدار بعضهم على بعض؛ و برغم ذلك، ما استطاع خالدٌ بثلاثة آلاف أن يقتل إلا سبعين رجلاً، أو أقل .

وفي يوم الحديبية خرجت قريش، كخروجها يوم أُحُد أو أشدَّ، ووقف خالد بن الوليد على رأس فرسان قريش، وما جرؤ على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، وهم حُرُمٌ لا يحملون إلا سيف الراحلة، بل وقف يبحث عن وقت غفلة؛ كي يأخذهم على غِرَّة

كما فعل يوم أحد وما استطاع شيئًا.

وفي سنة تسع من الهجرة عقدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لواءً لخالد بن الوليد بأربعمائة وعشرين فارساً، إلى إحدى قرى الشام (دومة الجندل)؛ كي يُغِير على مَلكها أُكَيْدِر؛ فقال خالد: يا رسول الله، كيف لي به وسط بلاد كَلْبٍ، وإنما أنا في أناس يسير؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: ستجده يصيد البقر؛ فتأخذه؛ فتشجع خالد، وسار إليه فوجده على الحال التي وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه وبعد عامين فقط: تجمَّعت قبائل كلب، ومَن جاورها مِن بني تميم، ومعهم أحياء قضاعة عند دومة الجندل؛ فتحرك إليهم خالدٌ في جيش أقل منهم بكثير جدًّا، وذبحهم في الحصون وحولها.

وبعد عامين آخرين: ركب خالد بن الوليد في نفر يسير بالنسبة لقوَّات العدوِّ إلى مَن ارتد مِن العرب؛ من غطفان، وبني حنيفة ثم اتجه إلى أهل العراق والشام؛ فأتى على قوى الكفر كلها؛ من عرب، وفرس، وروم في تلك البلاد، وما تردد في معركة، وما انهزم فما الذي حدث؟

خالد هو خالد، بل في الإسلام كبرت سنه ورقَّ بعض الشيء عظمه، فكيف يَهزم كل هذه الجيوش المتماسكة المجتمعة؟ وكيف يقتل كل هذا العدد من البشر؟ حدث هناك نوع من التغيُّر في المفاهيم، والتصورات الداخلية، التي تُحرِّك خالد بن الوليد ومَن معه؛ نوع جديد من المفاهيم عن طبيعة المعركة، وأسباب النصر والهزيمة؛ جعلت خالدًا يُحْدث كل هذا الأثر في واقع الناس. وتدبَّر هذين الموقفين:

الإسلام يُغيِّر مفاهيم خالد:

يوم اليرموك :جاء أحدهم يخوفه من الروم وقد أقبلت كالسحابة السوداء، تسد الأفق، تموج بهم الأرض، كما يموج البحر، صوتهم كالرعد كما يصفهم ابن كثير على لسان من حضر المعركة والمسلمون قِلة جاء يقول لخالد: ما أكثرَ الرومَ وأقل المسلمين! فقال خالد: ويلك! أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر أي من الله ، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر يعني فرسه براءٌ مِن تَوَجِّيه،

وأنهم أُضعِفوا في العدد وحين همَّ بعبور بادية الشام من العراق إلى اليرموك؛ خاف مَن معه؛ واستداروا كأنهم يريدون مراجعته في أمر العبور إلى الشام؛ فقام فيهم خطيبًا بهذه الكلمات: اعلموا أن المعونة على قدر النية، والأجر على قدر الاحتساب؛ فأروا الله من أنفسكم خيرًا؛ يمدكم بمَدده خالد بالأمس القريب، حين أُمِرَ بالتوجُّه لأكيدر؛ يحسب للعدد حسابًا وينادي: كيف وإنما أنا في نفر يسير؟ وهو اليوم يلغي عامل العدد من أسباب النصر والهزيمة .

وخالد يتمنى شفاء فرسه؛ ليكون أنشط في القتال، مقابل أن يزيد جيش الروم ضعفًا كاملاً أهذا خالد يوم أُحد والحديبية؟!وخالد يُقدم على عبور المفازة، سالكًا طريقًا لا يظن عاقل أن جيشًا يسير فيه وينجو؛ معتمدًا على أن المعونة من الله على قدر النية؛ فهو يتكلم بأن السبب المطلوب بذلُه لعبور هذه المفازة هو صدْق اللجوء إلى الله، وحسْن التوكل عليه، ويُذكِّر من معه بالاحتساب؛ حتى لا يضيع الأجر.

العقيدة.. ومقاييس أخرى للنصر والهزيمة:

إن العامل الأساسي هو العقيدة، وليس شخص خالد فكما رأيت، حَدَثَت تغيرات نوعية في شخصيته، وما أنجزه بعد الإسلام، وهذا الأثر ازداد تدريجيًّا بثبات الإسلام في صدره كما علل هو ويزداد هذا الأمر وضوحاً في ذهنك حين تتذكر أن الفتوحات الإسلامية لم تتأثر مطلقًا برحيل خالد عن القيادة، ولكن برحيل الجيل الأول من الصحابة، ومجيء من كانوا أقلَّ شأنًا في أمر الدين .

ويزيد من هذا الافتراض أن النصر، والهزيمة، وطبيعة المعركة من حيث أطرافها لها تصوُّر خاص في الشريعة الإسلامية؛ فالشريعة تتكلم على حضور الملائكة القتال؛ تثبِّت الذين آمنوا، وتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا؛ قال الله تعالى :-(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)،

وحضور الملائكة الكرام متوقّف على تقوى الله، لا على عدد المسلمين وعتادهم، ولا على كونهم منتسبين للإسلام فقط؛ يقول تعالى :- (بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وفي التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة نجد أن العدد ليس من الأهمية بمكان؛ قال تعالى :- (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِّ وَاللهُّ مَعَ الصَّابِرِينَ):ونجد أننا سِتار لقدر الله سبحانه وتعالى فالله يُنفذ مِن خلال عباده قدَرَه، ويُظهر آثارَ صفاته؛ فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المتاحة للنصر؛ والله ينصر من ينصره .

وفي الشريعة الإسلامية: الهزيمة سببها الذنوب، ومنها: التقصير في الأخذ بالأسباب المتاحة، كما أمر الله؛ قال تعالى :- (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وقال سبحانه

:-(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُّ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) وهذه معارف يكتسبها أحدُنا بقراءتها فقط إن صدَّق المخبرَ بها أما أن تستيقن منها، وتصطبغ بها، وتتعامل من خلالها فهذا لا تناله في يوم وليلة؛ فالشهوات والشبهات تتصارع مع خطاب الوحي، ولا يستقر الإيمان في القلب إلا بعدَ حينٍ، وبين حين وآخر يجد من يناوشه، ويريد زحزحته، فإن لم ينتبه، تزحزح.

أهم المصادر والمراجع

١- الحضارة، د حسين مؤنس.

٢- نظرية الثقافة - مجموعة من الكتاب، ترجمة: د علي الصاوي.

٣- ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة: د عبد الصبور شاهين.

٤- مختصر دراسة التاريخ، توينبي، ترجمة: محمد فؤاد شبل.

٥- مع أرنولد توينبي، ترجمة: محمد عبد الله الشفقي.

٦- شروط النهضة- مالك بن نبي.

٧- القضايا الكبرى- مالك بن نبي.

٨- شروط النهضة- مالك بن نبي.

٩- نحن نبني حضارتنا- فتح الله كولن.

١٠- فلسفة الخدمة - محمد فتح الله كولن،

١١- فتح الله كولن ومشروع الخدمة -د. محمد بابا عمي.

١١- سر تطور الأمم، تعريب: أحمد فتحي زغلول.

١٢- توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث - محمد فؤاد شبل.

١٣- شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر مسقاوي، د عبد الصبور شاهين.

١٤- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن بني، ترجمة: د بسام بركة، د أحمد شعبو.

١٥- وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: د عبد الصبور شاهين

١٦- تأملات - مالك بن نبي.

١٧- القضايا الكبرى - مالك بن نبي.

١٨- بين الرشاد والتيه- مالك بن نبي.

١٩- ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة: د عبد الصبور شاهين .

٢٠- ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

٢١- ترانيم روح وأشجان قلب فتح الله كولن.

٢٢- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح- فتح الله كولن .

٢٣- القلوب الضارعة- فتح الله كولن .

٢٤- تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: عباس محمود

٢٥- معالم شخصية المسلم - د. يحيى فرغل .

٢٦- سيرة ابن هشام.

٢٧- المغازي- الواقدي .

٢٨- مدارج السالكين - ابن القيم .

٢٩- تحفة الأحوذي لشرح سنن الترمذي.

٣٠- تاج العروس، مادة: عقد.

٣١- لسان العرب - ابن منظور.

٣٢- القاموس المحيط - للفيروزابادي.

٣٣- القاموس الفقهي .

٣٤- الحاوي من فتاوى الشيخ الألباني - إعداد محمد إبراهيم.

٣٥- معارج القَبول بشرح سُلَّم الوصول إلى علم الأصول -لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي.

٣٦- شرح سلم الوصول في علم الأصول - الحازمي.

٣٧- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية- د عثمان جمعة ضميرية.

٣٨- تأصيل علم العقيدة - عبدالرحيم بن صمايل العلياني السلمي.

٣٩- تسهيل العقيدة الإسلامية - ابن جبرين.

٤٠- المفيد في مهمات التوحيد - عبدالقادر عطا .

٤١- شرح العقيدة الطحاوية - ناصر بن عبدالكريم العلي العقل.

٤٢- فتح ربِّ البرية بتلخيص الحموية - ابن عثيمين.

٤٣- شرح العقيدة التدمرية - ناصر بن عبدالكريم العلي العقل.

٤٤- نظرات فى الثقافة الاسلامية- عز الدين الخطيب التميمى.

٤٥- الشخصية الاسلامية -عائشة عبدالرحمن.

٤٦- الاحلام - مصطفى محمود.

٤٧- المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية – وحيد الدين خان .

٤٨- الإسلام بين الشرق والغرب - على عزت بيجوفيتش.

٤٩- الثقافة والمنهج - عبدالوهاب المسيرى.

٥٠- ما بعد الحداثة - باسم على خريسان .

٥١- أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا -عبد الجواد الدومي.

٥٢- التحليل الفورى : كيف تفهم وتغير المائه سلوك الاكثر شيوعا

وارباكا واحباطا – ديفيد جيه ليبرمان

٥٣- الإيمان والعمران - عبدالمجيد النجار .

٥٤- المسلمون والبديل الحضارى- طه جابر العلوانى.

٥٥- نهاية الديمقراطية - جان مارى جيهينو ترجمة حليم طوسون.

٥٦- المقدس والحرية - رفيق حبيب.

٥٧- اعمال العقل- لؤى صافى .

٥٨- علم الإجتماع الغربى وثنائياته النظرية -فضيل دليو.

٥٩- حول التفسير الإسلامى للتاريخ- محمد قطب.

٦٠- الإسلام كبديل -ويلفريد هوفمان .

٦١- الانسان بين شريعتين... رؤية قرآنية لمعرفة الذات ومعرفة الآخر- عبدالحميد ابو سليمان .

٦٢- الهوية والحركة الإسلامية- عبد الوهاب المسيرى .

٦٣- دور الإصلاح العقدى فى النهضة الإسلامية –عبد المجيد النجار .

٦٤- كيف نتعامل مع القرآن - محمد الغزالى.

٦٥- الإعلان الإسلامى - على عزت بيجوفيتش.

٦٦- لغز الحياة- مصطفى محمود .

٦٧- الفتح الإسلامى لمصر- محمد سليم العوا .

٦٨- معالم شخصية المسلم – د. يحيى فرغل .

٦٩- تنبيه الخواطر - الامير ورّام بن أبي فراس .

٧٠- انظر الإيمان والحياة - د. يوسف القرضاوي .

٧١- الإيمان وآثاره - زكريا يوسف.

٧٢- أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا لعبد الجواد الدومي.

٧٣- ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه وفقهه - محمد أبو زهرة٠

٧٤- الكامل في التاريخ- ابن الأثير الجزري

٧٥- تاريخ الأمم والملوك- محمد بن جرير الطبري

٧٦- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين بن الخطيب

٧٧- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب- ابن عذارى المراكشي

٧٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- المقري التلمساني

٧٩- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام- الإمام الذهبي

٨٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ابن تغرى بردى

٨١- النهاية: الحافظ بن كثير

٨٢- ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم - تحقيق عبد القادر زمامة

٨٣- عامة قرطبة في عصر الخلافة - أحمد الطاهري

٨٤- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب - أحمد بن يحيى الونشريسي

٨٥- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر: عبد الرحمان بن خلدون

٨٦- المقتبس من أنباء أهل الأندلس - ابن حيان القرطبي

الفهرس